مجلة البيان ، السنة العاشرة ، العدد 91 ، ربيع الأول 1416هـ / أغسطس 1995م

كلمة صغيرة

حتى متى ؟ !

يحز في نفس كل مسلم مخلص الواقع المأساوي للعلاقات المتوترة بين كثير من أقطار العالم الإسلامي ، فلا تكاد تَسلم دولتان من نزاعٍ بينهما يشتد فيه الخلاف ، وقد تراق فيه الدماء .. على ماذا ؟ ! على أمتار من الأرض ، ربما ساهم في تخطيطها رجال أجانب سبق لهم احتلال تلك البلدان ، وعملوا عن سابق إصرار لتكون الحدود بؤراً قابلة للاشتعال في أي فرصة ، وهذا ما يحصل مع الأسف الشديد لأدنى سبب .

وتقوم (الرويبضات) بصب الوقود على النار بعيداً عن كل عقلانية يدّعونها ، ويساعد الإعلام (الرخيص) بصحفه الصفراء (الحمراء سابقاً !) في إيقاد النار ليزداد اشتعالها ، لا لشيء وإنما لنزاعات إقليمية ضيقة ولنعرات جاهلية سخيفة .

أين ما يجب أن يدين به أولئك من دين يجعل الجميع أمة واحدة ؟ ! بل أين الرابطة (القومية) التي طالما تغنوا بها ؟ !

إنها لمأساة تضحك الثكالى حينما تُمد الأيادي إلى الأعداء الألداء الذين حذرنا الله من الركون إليهم ، وفي الوقت نفسه تُدفع شعوبنا إلى معاداة نهى إسلامنا عنها ، وأمرنا الباري (جل وعلا) بأن نكون سويّاً كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

فحتى متى نتداعى في أحضان الأعداء كالفراش على النار ، بينما تتوتر النفوس وتثار أعصاب الشعوب حتى لم يبق على إشعال الحرب إلا تصرف أرعن ؟ !

ثم : نحن بحاجة إلى بناء الأمة وإثارة روح المجد والتعاون والتضامن ، بعيداً عن النزعات الجاهلية والتصرفات الغوغائية .

كلمة صغيرة

حتى متى ؟ !

يحز في نفس كل مسلم مخلص الواقع المأساوي للعلاقات المتوترة بين كثير من أقطار العالم الإسلامي ، فلا تكاد تَسلم دولتان من نزاعٍ بينهما يشتد فيه الخلاف ، وقد تراق فيه الدماء .. على ماذا ؟ ! على أمتار من الأرض ، ربما ساهم في تخطيطها رجال أجانب سبق لهم احتلال تلك البلدان ، وعملوا عن سابق إصرار لتكون الحدود بؤراً قابلة للاشتعال في أي فرصة ، وهذا ما يحصل مع الأسف الشديد لأدنى سبب .

وتقوم (الرويبضات) بصب الوقود على النار بعيداً عن كل عقلانية يدّعونها ، ويساعد الإعلام (الرخيص) بصحفه الصفراء (الحمراء سابقاً !) في إيقاد النار ليزداد اشتعالها ، لا لشيء وإنما لنزاعات إقليمية ضيقة ولنعرات جاهلية سخيفة .

أين ما يجب أن يدين به أولئك من دين يجعل الجميع أمة واحدة ؟ ! بل أين الرابطة (القومية) التي طالما تغنوا بها ؟ !

إنها لمأساة تضحك الثكالى حينما تُمد الأيادي إلى الأعداء الألداء الذين حذرنا الله من الركون إليهم ، وفي الوقت نفسه تُدفع شعوبنا إلى معاداة نهى إسلامنا عنها ، وأمرنا الباري (جل وعلا) بأن نكون سويّاً كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

فحتى متى نتداعى في أحضان الأعداء كالفراش على النار ، بينما تتوتر النفوس وتثار أعصاب الشعوب حتى لم يبق على إشعال الحرب إلا تصرف أرعن ؟ !

ثم : نحن بحاجة إلى بناء الأمة وإثارة روح المجد والتعاون والتضامن ، بعيداً عن النزعات الجاهلية والتصرفات الغوغائية .

دراسات شرعية

اتباع النبي (صلى الله عليه وسلم) في ضوء الوحيين
حقيقته ، منزلته ، مظاهره ، عوائقه
(1)

بقلم : فيصل بن علي البعداني

اتباع النبي أحد أساسيات دين الإسلام ومسلماته ، وقد تواترت النصوص الشرعية الصحيحة في بيانه ، إلا أن ذلك لم يمنع انحراف طوائف من المسلمين عن سلوك الجادة فيه ، حيث اضطربت فيه أفهام وزلت أقدام ؛ مما جعل الحاجة لإيضاحه تعظم ، والبيان يتوجب ، ولذا : فسأحاول في هذه الدراسة التعريج عليه لبيان بعض جوانبه ، راجياً الله (تعالى) أن يوفق للخير ويصلح القصد .

الاتباع في اللغة :

مصدر اتبع الشيء إذا سار في أثره وتلاه ، والكلمة تدور حول معاني اللحاق والتطلب والاقتفاء والاقتداء والتأسي .

يقال : اتبع القرآن : ائتم به وعمل بما فيه ، واتبع الرسول -صلى الله عليه وسلم- : اقتدى به واقتفى أثره وتأسى به[1].

الاتباع في الشرع :

هو الاقتداء والتأسي بالنبي -صلى الله عليه وسلم- في الاعتقادات والأقوال والأفعال والتروك ، بعمل مثل عمله على الوجه الذي عمله -صلى الله عليه وسلم- من إيجاب أو ندب أو إباحة أو كراهة ، مع توفر القصد والإرادة في ذلك .

ويكون الاتباع للنبي -صلى الله عليه وسلم- في الاعتقادات : بأن يعتقد العبد ما اعتقده النبي -صلى الله عليه وسلم- على الوجه الذي اعتقده من ناحية الوجوب أو البدعية ، أو لكونه من أسس الدين أو ناقضاً لأصله أو قادحاً لكماله ... إلخ من أجل أنه اعتقده -صلى الله عليه وسلم- ، ويشمل الاعتقاد هنا : قول القلب وهو التصديق ، وعمل القلب وهو الإخلاص والمحبة والتوكل والخوف والرجاء .. إلخ .

ويكون الاتباع للنبي -صلى الله عليه وسلم- في الأقوال : بامتثال مدلولها ، وما جاءت به من معانٍ ، لا أن تكرر ألفاظها وتردد نصوصها فحسب ، فمثلاً : الاتباع لقوله -صلى الله عليه وسلم- : صلوا كما رأيتموني أصلي [2] يكون بالصلاة كصلاته .

كما يكون الاتباع للنبي -صلى الله عليه وسلم- في الأفعال : بأن نفعل مثل
فعله على الوجه الذي فعله من أجل أنه فعله .
فقولنا (مثل فعله) : لأنه لا تأسي مع اختلاف صورة الفعل وكيفيته .
وقولنا (على الوجه الذي فعله) : معناه المشاركة في غرض ذلك الفعل ونيته
(إخلاصاً ، وتحديداً للفعل من حيث كونه واجباً أو مندوباً) لأنه لا تأسي مع اختلاف
الغرض والنية وإن اتحدت صورة الفعل .
وقولنا (من أجل أنه فعله) : لأنه لو اتحدت الصورة والقصد ولم يكن المراد
التأسي والاقتداء فإنه لا يكون اتباعاً .
ويكون الاتباع للنبي -صلى الله عليه وسلم- في التروك : بأن نترك ما ترك
على الصفة والوجه الذي ترك من أجل أنه ترك ، وهي القيود نفسها في الاتباع في
الأفعال .
والمراد باتباع الرسول -صلى الله عليه وسلم- اتباعه في كل ما جاء به من
أوامر ونواهٍ في القرآن والسنة لقوله -صلى الله عليه وسلم- : ألا إني أوتيت الكتاب
ومثله معه ، ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه [3] ، قال عطاء : طاعة الرسول-
صلى الله عليه وسلم- : اتباع الكتاب والسنة [4] .

المخالفة ضد الاتباع :

وتكون المخالفة في الاعتقاد والقول والفعل والترك ، فأما المخالفة في الاعتقاد
تكون بأن يعتقد العبد خلاف ما اعتقده النبي -صلى الله عليه وسلم- كأن يُحِلّ إنسان
ما عُلم بالضرورة تحريمه من دين الإسلام ، أو يحرم ما علم بالضرورة حله من
دين الإسلام ، ومثل أن يبتدع في دين الله (تعالى) ما ليس منه كالاحتفالات البدعية
التي لم يفعلها النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا صحابته (رضي الله عنهم) ، ومثل
أن يعتقد أحد بأن المخالفين لشرع الله (تعالى) وما جاء به النبي -صلى الله عليه
وسلم- هم أولياء الله وأحباؤه . والمخالفة في القول تكون بترك امتثال ما اقتضاه
القول ودل عليه من وجوب أو حظر ، والمخالفة في الفعل تكون بالعدول عن فعل

مثله مع كونه واجباً ، والمخالفة في الترك تكون بفعل ما ترك مع كونه محرماً .
ولا تكون المخالفة في ترك المندوب وفعل المكروه ، بل لا تكون إلا في ترك الواجب وفعل المحرم .

علاقة الاتباع بالزمان والمكان :

لا علاقة للزمان المخصص أو المكان المخصص بالفعل لمجرد وقوعه فيه إلا بدليل خارجي عن ذلك الفعل ، فإن خصص المصطفى -صلى الله عليه وسلم- لنا بذلك الدليل الخارجي لذلك الفعل زماناً أو مكاناً خصصناه به كتخصيص الطواف حول الكعبة والاستلام بالحجر الأسود والركن اليماني (مع اختلاف في الصفة) والصيام الواجب بشهر رمضان ، والوقوف بعرفات في اليوم التاسع من ذي الحجة ، وعيدي الفطر والأضحى بوقتهما المعروف ، وأما ما فعله بحكم الاتفاق والمصادفة ولم يقصده لذاته -ولو تكرر ذلك- مثل : أن ينزل بمكان ويصلي فيه ، لكونه نزل لا قصداً لتخصيصه بالصلاة والنزول فيه ، فإذا قصدنا تخصيص ذلك المكان بالصلاة فيه أو النزول لم نكن متبعين على الأصوب بل مبتدعين ، وقد ورد نهي الفاروق عمر (رضي الله عنه) في قوله الثابت : إنما هلك أهل الكتاب أنهم اتبعوا آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس وبيعاً ، فمن عرضت له الصلاة [أي : في موضع صلاته -صلى الله عليه وسلم-] فليصل أو فليمض [5] ، وتؤكد هذا المعنى أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) فتقول : نزول الأبطح ليس بسنة ، إنما نزله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأنه كان أسمح لخروجه إذا خرج [6] ، ولقد قرر كثير من أهل العلم هذا المعنى : كابن تيمية في الفتاوى [7] ، والآمدي في أحكامه حيث قال : ... فلو وقع فعله في مكان أو زمان مخصوص فلا مدخل له في المتابعة والتأسي وسواء تكرر أو لم يتكرر ، إلا أن يدل الدليل على اختصاص العبادة به كاختصاص الحج بعرفات ، واختصاص الصلوات بأوقاتها ، وصوم رمضان [8] .

الأفعال النبوية من حيث الاتباع والتأسي :

تنقسم أفعال النبي -صلى الله عليه وسلم- من حيث الاتباع والتأسي إلى ثلاثة أقسام هي :

1- الأفعال الجبلية :

كالقيام والقعود والشرب والنوم وغير ذلك ، وهي نوعان من جهة التأسي والاتباع :

* نوع جاء النص الخارج عن الفعل بإيجابه أو ندبه ، كالأكل باليمين ، والشرب ثلاثاً وقاعداً ، والنوم على الشق الأيمن فهذا يشرع التأسي والاقتداء به في ذلك .

* نوع لم يأت نص دال على مشروعيته ، وهو باق على الأصل من حيث الإباحة للجميع ؛ وذلك لأن الأوصاف التي يطبع عليها الإنسان كالشهوة إلى الطعام والشراب لا يطلب برفعها ولا بإزالة ما غرز في الجبلة منها [9] . وهذا النوع محل خلاف بين أهل العلم في مشروعية التأسي والاقتداء به -صلى الله عليه وسلم- فيه على جهة الندب على قولين :

أ- أن التأسي والاقتداء بالنبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا النوع مندوب ، وقد كان ابن عمر (رضي الله عنه) يفعل مثل ذلك وإن كان قد فعله -صلى الله عليه وسلم- اتفاقاً ولم يقصده .

ب- أنه لا يشرع التأسي والاقتداء بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا قول وفعل جمهور الصحابة (رضي الله عنهم) ، ومنهم الفاروق وعائشة (رضي الله عنهما) كما في كلامهما المتقدم [10] .

ويلحق بالأفعال الجبلية : الأفعال التي فعلها النبي -صلى الله عليه وسلم- بمقتضى العرف والعادة كلبس الجبة والعمامة وإطالة الشعر ونحو ذلك ، إذ لا تدل على غير الإباحة إلا إذا ورد دليل على مشروعيتها [11] .

2- الأفعال التي علم أنها من خصائصه صلى الله عليه وسلم :

ذكر أهل العلم في باب خصائصه -صلى الله عليه وسلم- أموراً من المباحات

والواجبات والمحرمات بعضها متفق على حكمه بالنسبة له -صلى الله عليه وسلم- وبعضها الآخر فيه خلاف ، فمن المباح له : الزيادة على أربع نسوة في النكاح ، والنكاح بلا مهر ، ونكاح الموهوبة ، ومن الواجب عليه : وجوب التهجد وقيام الليل ، ومن المحرم عليه : الأكل من الصدقة ، وأكل ذي الرائحة الخبيثة كالثوم والبصل .

فهذه خصائص لا يشاركه فيها أحد ولا يقتدى ويتأسى به فيها [12] ؛ قال الشوكاني : والحق أنه لا يقتدى به -صلى الله عليه وسلم- فيما صرح لنا بأنه خاص به كائناً ما كان إلا بشرع يخصنا [13] .

ويلحق بهذا ويرجع إليه : ما خص به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعض أصحابه دون بعض ؛ كشهادة خزيمة وأضحية أبي بردة [14] ، كما يلحق به ما خص به -صلى الله عليه وسلم- أهل بيته (رضي الله عنهم) كالمنع من أكل الصدقة .

3- الأفعال التعبدية :

وهي الأفعال غير الجبلية وغير الخاصة التي يقصد بها التشريع ، فهذه مطلوب الاقتداء والتأسي به -صلى الله عليه وسلم- فيها ، وهي الأصل في أفعال النبي -صلى الله عليه وسلم- لقوله (تعالى) : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... ﴾ [الأحزاب : 21] إلا أن صفتها الشرعية تختلف من حيث الإيجاب أو الندب بحسب القرائن .

قواعد مهمة في الاتباع :

لتقرير ما سبق حول حقيقة الاتباع أذكر القواعد التالية :

أ- مبنى دين الإسلام على الوحي والنقل الصحيح لا العقل والاستنباط ، فما جاءنا من أمر ونهي في كتاب الله (تعالى) أو سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- وجب علينا قبوله والمبادرة إلى امتثاله فعلاً أو تركاً .

ب- يتعين على المسلم البحث عن الحكم الشرعي والتثبت فيه قبل إتيان العمل في جميع شؤون حياته ، وتطبيق ذلك هو حقيقة الاتباع والتأسي برسول

الله -صلى الله عليه وسلم- ؛ يقول الشاطبي حول ذلك : كل من ابتغى في تكاليف الشريعة غير ما شرعت له فقد ناقض الشريعة ، وكل من ناقضها فعمله في المناقضة باطل ، فمن ابتغى في التكاليف ما لم تشرع له فعمله
باطل [15] .
ج- ما تركه النبي -صلى الله عليه وسلم- من جنس العبادات ولم يفعله مع
وجود المقتضي لفعله على عهده -صلى الله عليه وسلم- ففعله بدعة وتركه سنة ،
كالاحتفال بالمولد النبوي والإسراء والمعراج والهجرة ورأس السنة ونحوها ، قال
رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد [16] . يقول الإمام مالك (رحمه الله) : فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً [17] .
د- كل ما يحتاجه الناس في أصول الدين وفروعه ، في أمور الدنيا والآخرة
من العبادات والمعاملات في السلم أو الحرب ، في السياسة أو الاقتصاد ... إلخ
جاءت الشريعة ببيانه وإيضاحه ؛ قال الله (تعالى) : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً
لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : 89] ، وقال (سبحانه) :
﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾
[المائدة : 3] .
هـ - أن الاتباع لا يتحقق إلا إذا كان العمل موافقاً للشرع في ستة أمور ، هي :
1- السبب : فإذا تعبد الإنسان لله (تعالى) بعبادة مقرونة بسبب غير شرعي
فهي بدعة مردودة على صاحبها ، مثل إحياء ليلة السابع والعشرين من رجب
بالتهجد بحجة أنها ليلة الإسراء والمعراج ، فالتهجد عبادة ، لكن لما قرن بهذا السبب
كان بدعة لكونه بني على سبب لم يثبت شرعاً .
2- الجنس : فإذا تعبد الإنسان لله (تعالى) بعبادة لم يشرع جنسها فهي غير
مقبولة ؛ كالتضحية بفرس لأن الأضاحي لا تكون إلا من جنس بهيمة الأنعام (الإبل البقر الغنم) .
3- القدر أو العدد : فلو أراد إنسان أن يزيد صلاة على أنها فريضة أو ركعة

في فريضة ، فعمله ذلك بدعة مردودة لأنها مخالفة للشرع في القدر أو العدد .
4- الكيفية : فلو نكس إنسان الوضوء أو الصلاة لما صح وضوؤه أو صلاته ؛ لأن عمله مخالف للشرع في الكيفية .
5- الزمان : فلو ضحى إنسان في رجب أو وقف بعرفات في التاسع من ذي القعدة لما صح ذلك منه لمخالفته للشرع في الزمان .
6- المكان : فلو اعتكف إنسان في منزله لا في المسجد ، أو وقف بمزدلفة لا عرفات لما صح ذلك منه لمخالفته للشرع في المكان [18] .
والأصل في العبادات بالنسبة للمكلف التعبد والامتثال دون الالتفات إلى الحِكَم والمعاني وإن كانت ظاهرة في كثير منها ، ولا يفهم من ذلك أن البحث عن الحِكَم والمعاني في العبادات التي دلت عليها القرائن ليس بمطلوب ، كيف لا وقد ذكر الله (تعالى) شيئاً من ذلك مثل قوله : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ ﴿ لعلكم تتقون ﴾ ، ولكن المراد : التحذير من التنطع في استخراجها أو ربط القيام بالتنفيذ والعمل بمعرفتها والأصل في العادات والمعاملات الالتفات إلى المعاني والبحث عن الحكم وإن كانت قد لا تظهر في أشياء منها [19] .
ز- المشقة ليست مقصودة في الشريعة ، ولذا : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- للشيخ الذي نذر أن يمشي وكان يهادى بين ابنيه : إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني ، وأمره أن يركب [20] ، قال العز ابن عبد السلام مقرراً ذلك : لا يصح التقرب بالمشاق ، لأن القرب كلها تعظيم للرب (سبحانه وتعالى) ، وليس عين المشاق تعظيماً ولا توقيراً [21] .

منزلة الاتباع في الشريعة :

للاتباع منزلة عظيمة في الشريعة الإسلامية ، ويتضح ذلك من خلال النقاط التالية :
1- الاتباع شرط لقبول العبادات :
لا قبول لعمل من الأعمال العبادية إلا بالاتباع والموافقة لما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم- ، بل إن الأعمال التي تعمل بلا اتباع وتأسّ لا تزيد عاملها

من الله إلا بعداً ؛ وذلك لأن الله (تعالى) إنما يعبد بأمره الذي بعث به رسوله -صلى
الله عليه وسلم- لا بالآراء والأهواء ؛ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : من
عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد [22] ، قال الحسن البصري : لا يصح القول
إلا بعمل ، ولا يصح قول وعمل إلا بنية ، ولا يصح قول وعمل ونية إلا
بالسنة [23] .

2- هو أحد أصلي الإسلام الأساسين :

الإخلاص وإفراد الله بالعبادة هو حقيقة إيمان العبد وشهادته بأن لا إله إلا الله ،
والاتباع والتأسي برسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو حقيقة إيمان العبد وشهادته
بأن محمداً رسول الله ، فلا يتحقق إسلام عبد ولا يقبل منه قول ولا عمل ولا اعتقاد
إلا إذا حقق هذين الأصلين (الإخلاص الاتباع) وأتى بمقتضاهما ؛ قال الله (تعالى) :
 فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً
[الكهف : 110] ، يقول ابن تيمية : وبالجملة فمعنا أصلان عظيمان ، أحدهما : ألا
نعبد إلا الله ، والثاني : ألا نعبده إلا بما شرع ، لا نعبده بعبادة مبتدعة ، وهذان
الأصلان هما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله [24]، ويقول ابن
القيم : فلا يكون العبد متحققاً ب (إياك نعبد) إلا بأصلين عظيمين : أحدهما : متابعة
الرسول صلى الله عليه وسلم ، والثاني : الإخلاص للمعبود [25] .

3- هو سبب لدخول الجنة :

ويدل لذلك قوله -صلى الله عليه وسلم- : كل أمتي يدخلون الجنة إلا
من أبى ، قالوا : يا رسول الله ومن يأبى ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد
أبى [26] ، وقال الزهري (رحمه الله تعالى) : الاعتصام بالسنة نجاة [27] .

4- هو دليل محبة الله (تعالى) :

ويدل لذلك قول الله (تعالى) : قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [آل عمران : 31] ؛ يقول ابن كثير : هذه
الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية ، فإنه

كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين المحمدي في جميع أقواله وأفعاله [28] .

5- طريق تحصيل محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحقيقة :

أوجب الله (تعالى) على عباده محبة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ، وتقديم ذلك على محبة النفس والمال والولد والوالد والناس أجمعين ؛ كما في الحديث : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين [29] ؛ وقوله -صلى الله عليه وسلم- لعمر بن الخطاب ، حين قال : يا رسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي ، فقال -صلى الله عليه وسلم- : لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال له عمر : فإنه الآن والله لأنت أحب إليّ من نفسي ، فقال -صلى الله عليه وسلم- : الآن يا عمر [30] .

ولا سبيل لتحصيل تلك المحبة للنبي -صلى الله عليه وسلم- وتحقيقها إلا عن طريق الاتباع والحرص على الكمال فيه ؛ يقول الخطابي حول هذا المعنى : لم يرد به حب الطبع بل أراد به حب الاختيار ، لأن حب الإنسان لنفسه طبع ولا سبيل إلى قلبه ، قال : فمعناه : لا تصدق في حبي حتى تفني في طاعتي نفسك وتؤثر رضاي على هواك وإن كان فيه هلاكك [31] .

6- الاتباع سبيل امتثال الأوامر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وتجنب الوعيد المترتب على ذلك :

أمر الله عباده بطاعة نبيه في آيات كثيرة منها قوله (تعالى) : ﴿ يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ... ﴾ [النساء : 59] ورتب الوعيد الشديد على مخالفته ، كما في قوله (تعالى) : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإن تَوَلَّوْا فَإنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : 32] .

ولا سبيل للعبد إلى امتثال تلك الأوامر بطاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- والاستجابة له وتجنب الوعيد الشديد على ذلك دنياً وآخرة إلا بالاتباع والتأسي .

7- الاتباع من صفات المؤمنين اللازمة لهم :
ويدل لذلك قوله (تعالى) : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ
هُمُ الفَائِزُونَ ﴾ [النور : 52] ، وقد نفى الله (سبحانه وتعالى) الإيمان عن من
أعرض عن طاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولم يرض بحكمه ؛ قال الله
(تعالى) : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي
أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء : 65] .
8- الاتباع علامة من علامات التقوى :
اتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- من علامات ودلائل تقوى القلب وصحة
إيمانه ؛ قال الله (تعالى) : ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القُلُوبِ ﴾
[الحج : 32] وشعائر الله : أوامره وأعلام دينه الظاهرة ، ومن أبرزها وأعلاها
طاعة النبي -صلى الله عليه وسلم- واتباع شرعه [32] .

من مظاهر الاتباع :

للاتباع مظاهر كثيرة من أهمها وأبرزها :
1- تعظيم النصوص الشرعية :
ويكون تعظيم النصوص الشرعية بتقديرها وإجلالها ، وتقديمها وعدم
هجرها ، واعتقاد أن الهدى فيها لا في غيرها ، وتعلمها وفهمها وتدبرها والعمل بها والتحاكم
إليها وعدم معارضتها ، وقد كان هذا هو هدي أئمة الاتباع وسادته من الصحابة
والتابعين ومن جاء بعدهم ، وحدث ابن عمر (رضي الله عنهما) أن رسول الله -
صلى الله عليه وسلم- قال : إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها فقال
أحد بنيه : إذِن والله أمنعها ، فأقبل عليه ابن عمر فشتمه شتمة لم يشتمها أحداً قبله
قط ، ثم قال : أحدث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وتقول : إذن والله
أمنعها [33] .
وحدث ابن سيرين رجلاً بحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال
رجل : قال فلان وفلان كذا ، فقال ابن سيرين أحدثك عن النبي -صلى الله عليه وسلم-
وتقول قال : فلان وفلان كذا وكذا ؟ والله لا أكلمك أبداً [34] .
2- الخوف من الزيغ والانحراف عن الحق :
وقد كان ذلك واضحاً جليّاً لدى الصحابة (رضوان الله عليهم) بل إن أفضل

هذه الأمة بعد نبيها (أبا بكر الصديق) كان يقول : لست تاركاً شيئاً كان رسول الله -
صلى الله عليه وسلم- يعمل به إلا عملت به ، وإني لأخشى إن تركت شيئاً من أمره
أن أزيغ ، وقد عقب ابن بطة على كلمة الصديق تلك فقال : هذا يا إخواني الصديق
الأكبر يتخوف على نفسه من الزيغ إن هو خالف شيئاً من أمر نبيه -صلى الله عليه
وسلم- ، فماذا عسى أن يكون من زمان أضحى أهله يستهزئون بنبيهم وأوامره
ويتباهون بمخالفته ويسخرون بسنته ؟ ! نسأل الله عصمةً من الزلل ونجاةً من سوء
العمل [35] .

3- الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم والتأسي به ظاهراً وباطناً :

بحيث يجرد العبد متابعته لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويكتفي بالتلقي
عنه ؛ فلا اعتقاد ولا عبادة ولا معاملة ولا خلق ولا أدب ولا نظام اجتماعي ولا
اقتصادي أو سياسي ... إلخ ، إلا عن طريقه وعلى وفق ما جاء به من أحكام
وتعاليم في الكتاب الكريم والسنة الصحيحة ، بحيث تكون شريعته هي المهيمنة
والرائدة .

4- تحكيم العبد للشرع وتحاكمه إليه :

بحيث يُحَكّم ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- في الكتاب والسنة
ويتحاكم إليهما ، ويجعل ذلك هو الميزان الذي يزن بواسطته الأقوال والأفعال
والأحكام ، فما وافقها قبله وعمل بما فيه ، وما خالفه رده وإن قاله من قاله ؛ قال الله
(تعالى) : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء : 65] ،
وتحكيم العبد وتحاكمه إلى الشريعة وحرصه على أن تكون جميع شؤونه خاضعة لها
هو السمة البارزة والعلامة الفارقة بين المسلم الحريص على الاتباع للحق ومن اتبع
هواه بغير هدى من الله فضل وأضل ، سواء أسمّي ذلك الهوى عقلاً أو ذوقاً أو
مصلحة أو إماماً أو حزباً أو نظاماً .. إلخ .

4- الرضا بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرعه :

عن العباس (رضي الله عنه) أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-
يقول : ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً [36] .
فإذا رضي المسلم بمحمد -صلى الله عليه وسلم- نبيّاً ورسولاً : لم يلتفت إلى
غير هديه ولم يعول في سلوكه على غير سنته ، وحَكّمَه وحاكم إليه ، وقبل حكمه
وانقاد له وتابعه واتّبَعَه ورضي بكل ما جاء به من عند ربه ، فيسكن قلبه لذلك ،
وتطمئن نفسه ، وينشرح صدره ، ويرى نعمة الله عليه وعلى الخلق بهذا النبي -
صلى الله عليه وسلم- وبدينه أيما نعمة ، فيفرح بفضل ربه عليه ورحمته له بذلك ؛
حيث جعله من أتباع خير المرسلين وحزبه المفلحين ؛ قال الله (تعالى) : ﴿ يَا أَيُّهَا
النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ *
قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾
[يونس : 57 ، 58] والرضا كلمة تجمع القبول والانقياد ؛ فلا يكون الرضا
إلا حيث يكون التسليم المطلق والانقياد الكامل ظاهراً وباطناً لما جاء به
الرسول -صلى الله عليه وسلم- من ربه [37] .

---

(1) انظر : لسان العرب ج1 ، ص416 ، 417 ، المعجم الوسيط ج1 ، ص81 .
(2) البخاري مع الفتح ج2 ، ص131 ، 132 ، ح631 .
(3) أخرجه أحمد : ج4 ، ص134 ، وصححه الألباني .
(4) الدارمي : ج1 ، ص516 .
(5) قال ابن تيمية في الفتاوى (ج10 ، ص410) : ثبت بالإسناد الصحيح .
(6) أخرجه مسلم : م2 ص951 ، ح1311 .
(7) انظر الفتاوى : ج10 ، ص409 .
(8) الأحكام للآمدي : ج1 ص226 .
(9) الموافقات للشاطبي : ج2 ، ص108 .
(10) انظر في تقرير ذلك : كتاب قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لابن تيمية ص105 ، 106 .
(11) انظر : أفعال النبي -صلى الله عليه وسلم- للأشقر ، ج1 ، ص 235 ، 236 .
(12) انظر : الأحكام للآمدي ، ج1 ، ص228 .
(13) إرشاد الفحول : ص35 ، 36 .
(14) انظر : الموافقات للشاطبي : ج2 ، ص245 ، 246 .
(15) الموافقات : ج2 ، ص333 .
(16) مسلم : م3 ، ص1344 ، ح 1718 .
(17) الاعتصام للشاطبي : ج1 ، ص49 .
(18) انظر : الإبداع في بيان كمال الشرع وخطر الابتداع لابن عثيمين ص 21 ، 22 .
(19) راجع مبحث الشاطبي النفيس في ذلك ، في الموافقات : ج2 ، ص 300-310 .
(20) مسلم : م3 ، ص1263 ، ح 1642 .
(21) قواعد الأحكام في مصالح الأنام : ج1 ، 30 .

(22) مسلم : م2 ، ص1344 ، ح1718 .
(23) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي : ج1 ، ص57 رقم : 18 .
(24) الفتاوى : ج1 ، ص333 ، 334 .
(25) مدارج السالكين : ج1 ، ص104 .
(26) البخاري مع الفتح : ج13 ، ص263 ح7280 .
(27) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي : ج1 ، ص56 رقم : 15 .
(28) تفسير القرآن العظيم : ج1 ، ص358 .
(29) البخاري مع الفتح : ج1 ، ص75 ح 15 .
(30) البخاري مع الفتح : ج11 ، ص532 ح6632 .
(31) انظر : شرح النووي لمسلم ج2 ، ص15 .
(32) انظر : تفسير القرآن العظيم ج3 ، ص219 وتفسير السعدي ج5 ، ص293 .
(33) الدارمي : ج1 ، ص124 رقم 448 .
(34) الدارمي : ج1 ، ص124 رقم : 447 .
(35) انظر كلمة الصديق وتعقيب ابن بطة في : الإبانة الكبرى ج1 ، ص 245 ، 246 .
(36) مسلم : م1 ، ص62 ، ح 34 .
(37) انظر : الضوء المنير على التفسير للصالحي ج2 ، ص253 ، 254 .

دراسات تربوية قرآنية

لا تحسبوه شراً لكم

بقلم :عبد العزيز بن ناصر الجليل

مدخل :

يواصل الكاتب (وفقه الله) وقفاته التربوية القرآنية مع بعض الآيات القرآنية ،
فقد سبق أن تطرق لوقفات مع قوله (تعالى) : ﴿ وَلا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 42] ويواصل مجدداً وقفات إيمانية أخرى مع قوله
(تعالى) : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَراً لَّكُم ﴾ [النور : 11] .

- البيان -

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

إن الله (عز وجل) ، بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلا ، كتب النصر والغلبة لأهل الحق من أوليائه الصالحين والمصلحين ، وكتب المهانة والذلة على أعدائه من الكافرين والمنافقين ، وهذه سنة لا تتخلف إلا إذا تخلفت أسبابها ، حيث يديل الله (سبحانه) أعداءه الكفرة على عباده المؤمنين ، ويسلطهم عليهم ويظهرهم ، فتظهر من ذلك الشرور والمصائب كما هو الحاصل في واقعنا المعاصر حيث الاستضعاف والذلة لجل المسلمين ، والغلبة والقهر للكافرين ، وما كان لسنة الله

(سبحانه) أن تتبدل ولا أن تتحول ، ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ
تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر : 43] ولكن أسباب تحقيق سنة الله (سبحانه) في نصر عباده
المؤمنين قد تخلفت ؛ فحقت علينا سنة الله (سبحانه) في التغيير ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا
بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : 11] وسنة الله (سبحانه) لا تحابي أحداً .
ومع وضوح هذه السنة وجلائها من القرآن ، وبمقتضى العقل والحس ، إلا أننا نجد
من هو في غفلة عنها وعن مقتضى أسمائه (سبحانه) وصفاته العلا ؛ حيث أدت هذه
الغفلة عند بعضنا إلى شيء من اليأس والإحباط ، أو إلى شيء من العجلة والتسرع
أمام ضغط الواقع ، وتسلط الأعداء ، وعند انتشار الظلم والفساد .

ولن يكون الكلام هنا عن تلك السنة ، وإنما سينصب الاهتمام على سنة
عظيمة تنبثق عنها السنة السابقة ، والله (سبحانه) يبينها لنا من خلال أسمائه الحسنى
وصفاته العلا ، حيث إن الجهل بها أو الغفلة عنها بعد معرفتها يسهم أيضاً في مزيد
من اليأس والقنوط ، أو الجزع والتسخط ، أو الاندفاع والعجلة والتهور ، وهذه
وقفات مع قوله (تعالى) : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَراً لَّكُم ﴾ [النور : 11] .

هذه الآية توجيه رباني في إحسان الظن بالله (عز وجل) ، والثقة بحكمته
ورحمته ، وأنه (سبحانه) لا يريد بعباده المؤمنين إلا الخير ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ
وَلا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ ﴾ [البقرة : 185] وهذا بدوره يبث الأمل في النفوس إزاء
المصائب ، ويبث الأمل في الأمة بأن المستقبل لهذا الدين مهما تسلط أعداؤه عليه ،
وكادوا له كيداً ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (15) وَأَكِيدُ كَيْداً (16) فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ
رُوَيْداً ﴾ [الطارق : 15 17] ، وهو ضروري كذلك لإدراك أن رحمة الله (عز
وجل) سبقت غضبه في كل ما يقدره على عباده المؤمنين ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ
الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : 54] وما أجمل ما قاله الإمام ابن القيم (رحمه الله تعالى) حول
هذا المعنى ، ومما ذكره : قد شهدت الفطر والعقول بأن للعالم ربّاً قادراً ، حليماً ،

عليماً ، رحيماً ، كاملاً في ذاته وصفاته ، لا يكون إلا مريداً للخير لعباده ، مجرياً
لهم على الشريعة والسنة الفاضلة العائدة باستصلاحهم ، الموافقة لما ركب في
عقولهم من استحسان الحسن ، واستقباح القبيح [1] .
وسيأتي إن شاء الله في ثنايا البحث من خلال الآيات القرآنية والأحاديث
النبوية والمواقف العملية التي تظهر لنا منها ثمار هذه السنة الكريمة ، وبخاصة في
واقعنا المعاصر المليء بالشبهات ، والشهوات ، والمتناقضات ، والمكائد ،
والمؤامرات .. ما يزيد الموضوع بياناً .

أهمية الموضوع :

تتضح أهمية الموضوع في الأمور التالية :
أولاً : علاقة هذه السنة بالعقيدة قوة وضعفاً ؛ فكلما قوي الإيمان بالله (سبحانه)
في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته : كلما قوي الفهم لهذه السنة ، وأثمرت في
القلب ثمارها الطيبة . والإيمان بهذه السنة والاصطباغ بها هو مقتضى الرضا بالله
ربّاً ومعبوداً ، ومقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العلا ؛ حيث إن هذه السنة من
ثمرات أسمائه (سبحانه) الحسنى ، التي منها : الحكيم ، والعليم ، والكريم ،
واللطيف ، والبر الرحيم .. وغيرها من الأسماء والصفات التي يجب التعبد لله
(سبحانه) بها . كما يظهر الارتباط بين هذه السنة وبين التوحيد في : أثرها على
صدق التوكل على الله (عز وجل) ، وتفويض الأمور إليه ، واليقين والثقة بوعده ،
وإحسان الظن به (جل وعلا) ، وأنه (سبحانه) لا يريد بعباده المؤمنين إلا الخير
والإصلاح ، فمهما ظهر من الشرور والمصائب ، فله (سبحانه) الحكمة البالغة
 وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ [آل عمران : 66] وأما ارتباطها بالأصل الخامس من
أصول الإيمان ألا وهو الإيمان باليوم الآخر فهذا واضح ؛ لأن اليقين باليوم الآخر
ورجاء الأجر من الله (عز وجل) يقويان الارتباط بهذه السنة في أن الآخرة خير
وأبقى ، مهما فات من هذه الدنيا . وأما علاقتها بالأصل السادس من أصول الإيمان

وهو الإيمان بالقدر خيره وشره فهذا ظاهر لا يحتاج إلى تعليق .
ثانياً : ما نراه اليوم في واقعنا المعاصر من الضغوط الشديدة والحرب الشرسة
من أعداء هذا الدين من اليهود والنصارى والمنافقين والمفسدين ، وما يكيدون به
لهذا الدين وأهله من المكر والتشويه والابتلاء ؛ مما أدى ويؤدي إلى ظهور حالات
اليأس والإحباط من تغير الحال ، أو الشعور بالهزيمة النفسية والهوان والاستكانة ،
فكان لابد من التذكير بهذه السنة العظيمة التي تقوي اليقين بوعد الله (سبحانه) ،
والثقة بنصره ، والاطمئنان إلى قضائه وتدبيره ، وأنه (سبحانه) الحكيم العليم فيما
يقضي ويقدر ، ولابد أن يأتي الخير بعد الشر عندما يأذن الله (سبحانه) في ذلك وفق
علمه الشامل ، وحكمته البالغة ، وسننه التي لا تتبدل ولا تتحول .
ثالثاً : الجهل الحاصل عند بعض المسلمين بسنن الله (سبحانه) في التغيير ،
أو التغافل عنها بعد معرفتها ، لا سيما وأن في فهم قوله (تعالى) : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَراً لَّكُم ﴾ [النور : 11] خير معين لتفهم سنن الله (عز وجل) الأخرى : كما في قوله
(تعالى) : ﴿ إنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : 11] وفي
هذه المعرفة فتح باب للمنهج الصحيح في الدعوة إلى الله (سبحانه) ، كما أن فيها
وقاية من التخبط والاضطراب في المنهاج والاجتهادات ، كما أن في دراسة هذه
السنة وربط الأحداث والوقائع بها أكبر ضمانة للعقل المسلم من أن يتأثر
بالتصورات الجاهلية ، والتفسيرات المادية للتاريخ والأحداث التي سيطرت اليوم
على كثير من عقول المسلمين المتأثرين بوسائل الإعلام المادية وبالثقافات التي لا
تؤمن بالله ، ولا باليوم الآخر ، ولا بالقدر خيره وشره .
رابعاً : التنبيه إلى طلب الخِيَرة من الله (سبحانه) في كل الأمور ، وتفويض
الأمور إلى حسن تدبيره (عز وجل) واختياره ؛ لأنه (سبحانه) يعلم ولا نعلم ، ويقدر
ولا نقدر ، وهو علام الغيوب الذي يعلم ما كان وما سيكون ، ويعلم أين يكون
الخير ، وأين يكمن الشر ؛ ولذلك جاء التوجيه إلى دعاء الاستخارة في الأمور كلها .

خامساً : كثرة المشاكل والمصائب في زماننا هذا ، سواء على مستوى الأفراد
أو الجماعات ، التي أدت إلى ظهور كثير من الأمراض النفسية المعقدة : كالقلق ،
والاكتئاب ، والفصام .. وغيرها ، حتى أصبحت سمة لواقعنا المعاصر ، ومعرفة
الله (سبحانه) بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته التي تزرع في القلب الاطمئنان
والرضا ، وتفويض الأمور إليه (سبحانه) ، وحسن الظن به (عز وجل) ، وأن
اختيار الله لعبده أحسن من اختيار العبد لنفسه ، ولو ظهر ما يكرهه العبد ويؤذيه :
إن في تفهم قوله (تعالى) : ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَراً لَّكُم ﴾ [النور : 11] أحسن علاج لهذه
الأمراض وغيرها .

سادساً : إن في هذه السنة وفهمها طريقاً موصلاً إلى الفقه بقاعدة الشرع
العظيمة ، التي بنيت عليها أحكام الشرع ؛ ألا وهي : اليسر ورفع الحرج والمشقة ،
وأن الله (عز وجل) لا يريد بعباده إلا اليسر والرحمة ، سواء أكان في أحكامه
الكونية القدرية ، أو الدينية الشرعية .

(1) مفتاح دار السعادة : ص326 .

مقال

المأجور والمأزور من المجتهدين

بقلم : عادل الماجد

كثير من قضايانا تحتاج إلى اجتهاد ببذل الوسع في معرفة المصالح والمفاسد ،
ومن ثم نقرر قراراً وننفذ ما قررناه وننتهي .

وبغض النظر عن صواب القرار من خطئه أو التنفيذ نقول : فلان مجتهد !
ونقطع بهذه الكلمة كل حوار حول النتائج ، وإن كانت أفسدت مصالح
وجلبت مفاسد ، فيكفي أنه اجتهد ! ! بل نهديه أجراً لا نتيقنه عندما نقول : فلان اجتهد وهو مأجور ! !

فهل هو مأجور أم آثم ؟ وهل يحق لأي مسلم أن يبذل وسعاً في أي قضية
ويقرر وينفذ ولو كان غير مؤهل لذلك ؟ ! وهل الإخلاص والصدق يخولان للمرء

أن يجتهد في مسائل لا يعلم مناطها أو يعلم المناط ولكن يجهل فقه تحقيقه ؟ !

إن بذل الوسع يكون من مجتهد جمع بين فقهين : العلم ، والواقعة ؛ يقول صاحب أضواء البيان (رحمه الله) : فأما من ليس بأهل للحكم فلا يحل له الحكم ، فإن حكم فلا أجر له ، بل هو آثم ، ولا ينعقد حكمه سواء وافق الحق أم لا [1]، ويقول الشاطبي في الموافقات : الاجتهاد الواقع في الشريعة ضربان .... والثاني : غير المعتبر ، وهو الصادر عن من ليس بعارف بما يفتقر الاجتهاد إليه ، لأن حقيقته : أنه رأي بمجرد التشهي ، وخبط في عماية واتباع للهوى ، فكل رأي صدر على هذا الوجه فلا مرية في عدم اعتباره ؛ لأنه ضد الحق الذي أنزل الله [2] . فالاجتهاد حق خاص لا يتعدى عليه الآخرون ، وهم مأزورون غير مأجورين إذا لم يكونوا من أهـله إلا أن يعفو الله ولا يمكن حمل التقصير على حسن النية وسلامة المقصد .

وحتى صاحب الحق في الاجتهاد لا يسلم له اجتهاده ؛ إذ إنه لا يعدو الظنية في الحق ، وقد يجتهد اجتهاداً لا يقر عليه ولا يعذر في خطئه ، فلا يؤخذ رأيه بل يرد ؛ يقول الشاطبي : منها : أن زلة العالم لا يصح اعتمادها ولا الأخذ بها تقليداً ، وذلك لأنها موضوعة على المخالفة للشرع ولذلك عدت زلة [3] ثم يقول : ومنها : أنه لا يصح اعتمادها خلافاً في المسائل الشرعية ؛ لأنها لم تصدر في الحقيقة عن اجتهاد ، ولا هي من مسائل الاجتهاد ، وإن حصل من صاحبها اجتهاد ، فهو لم يصادف فيها محلاً ، فصارت في نسبتها إلى الشرع كأقوال غير المجتهدين [4] وسبب هذه الزلة تقصير من المجتهد في بذل الوسع ؛ يقول الشاطبي : فيعرض فيه الخطأ في الاجتهاد ، إما بخفاء بعض الأدلة حتى يتوهم فيه ما لم يقصد منه ، وإما بعدم الاطلاع عليه [الدليل] جملة [5] ويعلق الشيخ عبد الله دراز على ذلك : وقد

يكون هذان من عدم بذل الوسع ، ومن التقصير فيما هو واجب على المجتهد .
لذا : كان الوقوف أمام الاجتهاد من أهم أسباب حفظ الحق ودفع الخطأ ، وما
أدخلنا في التخبط والعماية إلا اجتهاد خاطئ في غير محله ؛ إما أنه صادر ممن
يفتقر إلى العلم ، أو ممن يفتقر إلى فقه الواقعة ، ومع ذلك يجد منا اتباعاً وتبريراً ،
لأن قائله فلان المعروف أو فلان الصادق العابد ! !
ومن المعلوم الثابت : أن المجتهد لا ينفرد بالوسائل ، بل هو محتاج إلى غيره
من أهل التجارب والصنائع والتخصصات ، وإن اجتهد دون التحقق من أهل
الوسائل فهو مقصّر في واجب بذل الوسع ملام غير مشكور ؛ يقول الشاطبي : لا
يلزم أن يكون مجتهداً في كل علم يتعلق به الاجتهاد على الجملة ؛ فالدليل
عليه أمور : أحدها : أنه لو كان كذلك لم يوجد مجتهد إلا في الندرة مما سوى الصحابة ، ونحن
نمثل بالأئمة الأربعة ، فالشافعي عندهم مقلد في الحديث لم يبلغ درجة الاجتهاد في
انتقاده ومعرفته ثم يقول وتراه في الأحكام يحيل على غيره كأهل التجارب والطب
الحيض وغير ذلك ، ويبني الحكم على ذلك ، والحكم لا يستقل دون ذلك
الاجتهاد [6] .
إنه بدون تلك العناية بالتعامل مع الاجتهادات سترتفع مصالح وتجلب مفاسد
باسم الاجتهاد وإرادة وجه الله في العمل ! ! وننسى هذا المنهج العظيم الذي مراده
الحق ممن كان ورد الباطل عمن كان ، ومن الأمور المشتهرة في السلف
ومن بعدهم : تخطئة المجتهد والرد على من تطاول إلى الاجتهاد وهو دونه ، فكم وقع في خطأ
مجتهد عظيم مثل الأئمة الأربعة ومن سبقهم وممن بعدهم ، ونص على ذلك في كتب
الفتيا والفقه وغيره ، من غير اكتراث : مَنْ صاحب الخطأ ، فهل نقف تلك الوقفات
أمام الاجتهادات الخاطئة التي أودت بمصالح وأفسدت أكثر مما أصلحت ، وهل
نقول : قف ! ! لا يحق لك الاجتهاد ؟ ولا يشترط أن يكون المخطئ رجلاً خبيث
النية ، سيء المقصد ، يتربص بنا الدوائر ! ! بل قد يصدر من المخلص والصادق

النصوح ، ولكنه يقع لأسباب كثيرة ، منها :
أولاً : الهوى : وهو الميل عن الحق ، وأصعبه : الهوى الخفي الذي يعتقد
صاحبه أنه متجرد من هواه وهو واقع فيه من حيث لا يشعر ؛ قال الماوردي : ..
وأما الوجه الثاني : فهو أن يخفي الهوى مكره ، حتى تموه أفعاله على العقل ،
فيتصور القبيح حسناً والضرر نافعاً ، وهذا يدعو إليه أحد شيئين : إما أن يكون
للنفس ميلاً إلى ذلك الشيء ، فيخفى عنها القبيح لحسن ظنها ، وأما السبب الثاني :
فهو استثقال الفكر في تمييز ما اشتبه وطلب الراحة في اتباع ما يسهل حتى يظن أن
ذلك أوفق أمريه وأحمد حاليه ، واغتراراً بأن الأسهل محمود والأعسر مذموم فلن
يعدم أن يتوسط بخدع الهوى[7].
ثانياً : الغفلة : هو اصطلاح للشاطبي في الموافقات يعبر به عن أحد أسباب
خطأ المجتهد [8] ، وهذه الغفلة تحدث للصغير والكبير والبر والفاجر ولا يسلم منها
أحد ؛ فهذا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول بعدما سمع أبا بكر (رضي الله
عنه) يتلو ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ
عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ :
فكأني لم أسمع بهذه الآية من قبل . فكم من عالم تقي ورع قال رأياً خالف نصّاً
صحيحاً صريحاً لا يخفى على صغار طلاب العلم بسبب غفلة . وآخر من الدعاة
العاملين اتخذ رأياً أو عمل عملاً جليّاً خطؤه ظاهراً فساده ، وذلك لغفلة منه ، وهو
وإن كان غير ملومٍ على غفلته ، فإنه يلام إن مضى بعد بيان الحق على اعتبار أنه
اجتهاد منه ! !
ثالثاً : التقصير : ومن التقصير : الكسل عن بذل الوسع في الحكم ، فيكسل
عن تقصي المسألة أو التثبت من الواقعة أو الدليل ، وقد يعجل فيقصر به الوسع ؛
يقول ابن تيمية في أقسام من ترك الحديث من المجتهدين : لكن الذي قد يخاف على

بعض العلماء أن يكون الرجل قاصراً في درك تلك المسألة ، فيقول مع عدم أسباب القول وإن كان له فيه نظر واجتهاد ، أو يقصر في الاستدلال ، فيقول قبل أن يبلغ النظر نهايته [9] .

ومثل ذلك لا يكون اجتهاداً لأنه صدر من مجتهد قصرت به وسائل الاجتهاد المعتبرة في هذه المسألة ، بل يقطع الشيخ عبد الله دراز بأن ذلك المجتهد ملوم قطعاً في تقصيره ، فيقول : يصح أن يقال : إنه [المجتهد المقصر] لم يبذل غاية الوسع ، والاجتهاد يتوقف عليه ، فإذا لم يقم ببذل أقصى الوسع والوقوف عند حد كان يمكنه تجاوزه في البحث يكون مقصراً وغير آتٍ بحقيقة الاجتهاد ، فيكون ملوماً قطعاً [10] .

وتتعجب اليوم من فتاوى واجتهادات تطلق سريعاً دون تروٍ أو دراية ، فلا تعجب أنه يُفتى في قضية ربما جمع عمر (رضي الله عنه) أهل بدر للإفتاء فيها [*] !! فالله المستعان .

---

(1) أضواء البيان : ج3 ، ص581 .
(2) الموافقات : ج4 ، ص167 .
(3) الموافقات : ج4 ، ص170 .
(4) الموافقات : ج4 ، ص172 .
(5) الموافقات : ج4 ، ص168 .
(6) الموافقات : ج4 ، ص109 .
(7) أدب الدنيا والدين : ص3537 .
(8) أنظر : الموافقات ، ج4 ، ص170 .
(9) الموافقات : ج4 ، ص171 .
(10) رفع الملام : ص43 .
(11) الموافقات ، ج4 ، ص171 ، الحاشية (1) الهامش رقم (11) غير مشار إليه في المقالة (ماس) .
(*) جميع النقول في هذا المقال عن الاجتهاد في الحكم الشرعي وشروط المفتي ، ولكن هذا ينطبق على الاجتهاد في أمور الدعوة ، وهذا القياس فيه جليّ ظاهر .

خواطر في الدعوة

تربية قرآنية

محمد العبدة

لم تكن تربية الأصحاب داخل قاعات المحاضرات ، يتلقون الدوس النظرية للحفظ والترديد ، ولكنها كانت تربية من خلال الأحداث والجهد والجهاد والتعب

والنصب ، كانت الآيات تتنزل وهم في أتون المعركة ، تحدثهم عن خلجات نفوسهم
وترشدهم وتصوبهم وتبين لهم قوانين النصر والهزيمة وسنن الله في الأمم
والجماعات .
نزلت آيات سورة الأنفال معاتبة للمسلمين الذين شهدوا بدراً لاختلافهم حول
الغنائم : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [الأنفال : 1] ، ونزلت
معاتبة لهم حرصهم على القافلة : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾
[الأنفال : 7] ، ومع أن الخلاف على الغنائم لم يقع من الكل ، إلا أن الآيات خاطبت
الجميع وكأنهم جسم واحد ، إبرازاً لأهمية الجماعة وتماسكها ، ودورها في حماية
الفرد ، ومسؤوليتها عما يقع داخل الصف ، وعندما أخطأ بعض الصحابة في أحد ،
وعصوا أوامر الرسول -صلى الله عليه وسلم- جاء الخطاب أيضاً للجميع : ﴿ حَتَّى
إذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران :
152] ، ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران : 165] وهذه أعظم تربية وأكملها
لترسيخ تضامن المجتمع الإسلامي ؛ يقول ابن عطية في تفسيره : جاءت المخاطبة
في هذه الآيات بجمع ضمير المؤمنين ، وإن كانت الأمور التي عاتبهم الله (تعالى)
عليها لم يقع فيها جميعهم ، ولذلك وجوه من الفصاحة ، منها : وعظ الجميع
وزجره ... ومنها : الستر والإبقاء على من فعل .. [1] .
ومن التربية القرآنية : أن العتاب جاء شديداً بعد بدر ، مع أنهم خرجوا
منتصرين ، وقد بذلوا أرواحهم في سبيل الله ، والبدريون هم الطبقة الأولى من
الصحابة ، قيل لهم : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الأنفال : 1] ، ويصور
حالهم قبل المعركة : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ [الأنفال : 6] وكل ذلك
حتى لا يصيبهم غوائل الظفر التي تصيب الإنسان عادة في مثل هذه الأحوال ،
وحتى لا يصيبهم الغرور في الدين ؛ فيظنوا أنه لابد من النصر في كل موقف لأنهم

مسلمون ، ولذلك قال لهم : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال : 17] ، ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : 126] ، وكأنه يريد منهم الاستمرار على هذا المستوى الإيماني ليكونوا أصحاب رسالة للعالم أجمع .

كان الموقف في أُحد مغايراً لما حدث في بدر ، فقد تحول سير المعركة لغير صالح المسلمين بعد عصيان الرماة ، وكانت النتائج مؤلمة ، وقد ترك بعضهم أرض المعركة ، ومع ذلك فقد جاءت الآيات لتعفو عنهم ، ولتمس ما حدث مسّاً رقيقاً ، وكأنها يد حانية تمسح جراحاتهم ، وتزيل عنهم آثار الغم الذي أصابهم ، قال (تعالى) : ﴿ إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ [آل عمران : 140] ، ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : 152] ، ﴿ إِنَّ الَذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [آل عمران : 155] ، ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظاً غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران : 159] .

أي دُمْ على مشاورتك لهم ، وإن وقع منهم ما وقع ، ولو أن الآيات جاءت مقرعة وموبخة لهم أشد التوبيخ ، بعد أن أصيبوا في أنفسهم ، ورأوا ما حل برسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، لأصابهم من الفشل والإحباط الشيء الكثير ، وأما الدرس فقد تعلموه ، وما نسوه أبداً بعد أُحد ، وهذه هي التربية القرآنية .

---

(1) تفسير ابن عطية : ج3 ، ص262 .

دراسات اقتصادية

وقفات متأنية مع ..
عمليات التمويل في البنوك الإسلامية
(1)

د . محمد بن عبد الله الشباني

مدخل :

البنوك الإسلامية مظهر من مظاهر الصحوة الإسلامية المعاصرة ، بُذلت

الجهود والأموال في سبيل قيامها لتؤدي دورها في أسلمة الاقتصاد ، ولم يسلم هذا
التوجه من نقد فريقين : الأول : العلماء المخلصون الذين يطالبون بالتصحيح
واستقامة العمل على الطريق الشرعي ، وألا يكون البنك الإسلامي مجرد شعار
استهلاكي فقط .
والثاني : العلمانيون المغرضون الذين يهاجمون تجربة البنوك الإسلامية
لأسباب مشبوهة لا تخفى .
وكاتب هذه الدراسة ليس غريباً على هذا التخصص ، فله دراسات وأبحاث
علمية من أشهرها كتاب : (بنوك تجارية بدون ربا) .. ويهدف بهذه الدراسة إلى
النصح والعمل الجاد لإنجاح هذه التجربة التي لم تعد تمثل أصحابها بقدر ما تمثل
الاقتصاد الإسلامي ومنطلقاته الشرعية .
ومجلة البيان ترحب بالتعقيبات التي تثري البحث وتعالجه من زوايا مختلفة .
- البيان -
تمثل البنوك الإسلامية الأمل الذي يتطلع إليه المسلم لتنظيم نشاطاته
الاقتصادية على ضوء ما يأمر به القرآن الكريم والسنة المطهرة ؛ فيجد المؤسسة
التمويلية التي تلبي احتياجاته المالية ضمن إطار الشريعة الإسلامية .
والواقع المأساوي للعالم الإسلامي يتمثل في الانفصام النكد بين العقيدة وما
توجبه من أحكام تشريعية تنظم حياة الإنسان الاقتصادية والاجتماعية ، وبين
التنظيمات والتشريعات التي فُرضت على الشعوب الإسلامية نتيجة الاحتلال
النصراني للبلاد الإسلامية وسقوط رمز الدولة الإسلامية الموحدة للعالم الإسلامي
على يد كمال أتاتورك وبروز قيادات سياسية قامت بتبني النموذج الغربي في
التشريع والتنظيم ، ومن ذلك : قيام النظام الاقتصادي على الفلسفة الربوية التي يقوم
عليها نظام الاقتصاد العالمي .
إن بداية الرغبة في الخروج عن الربا وتأسيس بنوك إسلامية تعمل على

الابتعاد في تعاملها عن الربا بدأ في الستينات من هذا القرن ، ولا زالت التجربة
البنكية الإسلامية تعاني كثيراً من القصور والمحدودية ، ويبرز كثير من التساؤلات
حول مدى شرعية كثير من العمليات التمويلية التي تمارسها البنوك الإسلامية .

في هذه الحلقة سوف أوضح الظروف التي تمارس البنوك الإسلامية فيها
أنشطتها البنكية والمعوقات التي تحول بين قيام نظام بنكي إسلامي سليم يمثل في
منطلقاته النظرية والتطبيقية روح الشريعة الإسلامية ، وفي الحلقات القادمة سوف
أتطرق إلى بعض العمليات التمويلية التي تمارس من قِبَل البنوك الإسلامية أو
غيرها من البنوك الربوية التي امتطت صهوة الرغبة لدى جمهور المسلمين بالابتعاد
باستثماراتهم ومدخراتهم عن الربا ، فأوجدت ما أطلق عليه صناديق التجارة حيث
اسْتُقْطِعَ جزءٌ من المدخرات لما تدعيه من قيام هذه الصناديق بالاتجار بالأموال
المشتركة فيها بعيداً عن الربا المحرم .

إن مناقشة الظروف وبعض المعوقات التي تحد من نشاط البنوك الإسلامية
ومن قدرتها على ممارسة العمليات البنكية من منطلقات إسلامية : سوف تساعد
القارئ على معرفة الأسباب التي تحد من انطلاقة هذه البنوك لخدمة المجتمعات
الإسلامية ، وإبعادها عن محق الربا الذي تعيشه هذه المجتمعات في واقعنا الراهن ،
ويمكن تحديد أهم المعوقات التي تحد من نشاط البنوك الإسلامية وتحرفها عن
ممارسة العمل البنكي السليم المنضبط بضوابط الشريعة في الأمور التالية :

أولاً : النشاط البنكي يمثل الجانب التطبيقي لجانب من جوانب النظام
الاقتصادي ، وبالتالي : فالنشاط البنكي يتأثر بالمنهج الذي يقوم عليه البناء
الاقتصادي ، وعلى هذا : لا يمكن عزل أعمال البنوك عن أن تسير وفق ما
يستلزمه النظام الاقتصادي ؛ من ضرورة أن تمارس البنوك ميكانيكية السياسات

النقدية والمالية التي ترسم من قِبَل الأجهزة الإدارية القائمة على تنفيذ النظام
الاقتصادي ، ومن المعروف أن الفائدة (الربا) تمثل الأساس الذي يقوم عليه النظام
الاقتصادي العالمي المعاصر ، وبالتالي : فإن البنك الإسلامي الذي يمارس نشاطه
ضمن إطار هذا النظام الاقتصادي في دول يقوم نظامها الاقتصادي على جواز أخذ
الفائدة الربوية واستخدامها أداةً لتوجيه حركة الأموال (السياسة النقدية) ، لتنفيذ
السياسة المالية المرسومة من قبل الأجهزة الاقتصادية للدولة : سوف يعاني من
مشكلة المواءمة بين سياساته البنكية التمويلية التي يمارس من خلالها نشاطه البنكي
القائم على أساس منع أخذ الفائدة وإعطائها والسياسة البنكية المرسومة من قبل البنك
المركزي الذي يشرف على أعمال البنوك ويوجهها وفق السياسات النقدية والمالية
التي ترسمها الأجهزة الاقتصادية للدولة التي يمارس البنك الإسلامي نشاطه فيها .

إن هذا الواقع يدفع البنك الإسلامي إلى اتباع مناهج تطبيقية في التمويل
تتوافق مع أسلوب الفائدة في عمليات الإقراض البنكية .

ثانياً : البيئة التنظيمية التي أشرنا إليها في الفقرة الأولى والتي يمارس البنك
الإسلامي نشاطه التمويلي ضمن إطارها تدفع البنك الإسلامي إلى استخدام وسائل
وطرق تمويلية تكون أقرب إلى وسائل الربا من ناحية ضمان العائد ، وذلك
باستخدام الحيل الشرعية لإجازة كثير من صور المعاملات التي يدور حولها الخلاف
والبحث عن مخارج فقهية لها ، وإن كانت في واقعها وحقيقتها ومقاصدها أقرب إلى
الربا من البيوع والمعاملات الشرعية ، إن النظام البنكي المعاصر يحد من قيام
البنوك بالعمليات الاستثمارية من خلال المشاركات التمويلية ، بل يقصر عمل
الاستثمار على وسيلة الإقراض حيث إن عملية المشاركات تقوم على عنصر
المخاطرة بخلاف عمليات الإقراض لتوافر العائد بخلاف التمويل القائم على فقة

المعاملات الشرعية الذي يرتكز على البيع والمشاركة في المخاطر .

ثالثاً : المنافسة لجذب الإيداعات وراغبي التمويل بين البنوك الإسلامية منها وغير الإسلامية التي تمارس عملها في الوسط الربوي ؛ مما يدفع البنوك الإسلامية لتجاوز الكثير من القواعد الشرعية في معاملاتها الشرعية والعمل على اختيار صيغ للتعامل تتفق في مضمونها وغايتها مع الأساليب البنكية الربوية ، بقصد جذب المودعين والراغبين في التمويل للتعامل مع البنك الإسلامي بالشكل الذي يجنب البنك الإسلامي مخاطر التعامل وفق الصيغ الإسلامية القائمة على عناصر المخاطرة وعدم ضمان الربح ، ولضمان نسب العائد الذي يمكن منحه للمودعين الذين فوضوا البنك في الاستفادة من هذه الودائع .

رابعاً : تطلع الجماهير الإسلامية إلى التخلص من الربا وتوسيع الأنشطة البنكية في العالم الإسلامي التي لا تقوم على الربا : دفع كثيراً من ذوي الغيرة إلى المطالبة بالبحث عن مخارج شرعية لكيفية توفير التمويل بدون اللجوء إلى الربا ، وصاحب هذا التطلع انتشار الوعي الديني والرغبة في تجنب الوقوع في الحرام مع بروز حقيقة : أن النظام البنكي ضرورة لتيسير التبادل النقدي وتسهيل حركة التجارة الدولية ، أدى ذلك التطلع إلى المطالبة بإيجاد بنوك تلتزم بالشريعة ، ولكن ضمن المبادرات الفردية بحيث لم يتم تبني نظام بنكي كامل مرتبط بالنظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي .

إن ضرورة توفر بيئة اقتصادية وتشريعية تلتزم بالشريعة الإسلامية يساهم في معالجة المشاكل التطبيقية من خلال إبراز تصور شمولي لمختلف العلاقات البنكية سواء ما يتعلق بكيفية تمويل الاستثمارات الداخلية أو العلاقات التبادلية الخارجية ضمن إطار يحكم العمل الاقتصادي للدولة ، بحيث يتم تجنب الازدواجية بين فلسفة النظام الاقتصادي السائد القائم على الربا الذي يمارس البنك الإسلامي نشاطاته

ضمنه وبين ما ينبيء من وجود بيئة تنظيمية يقوم نظامها على ممارسة الشريعة
الإسلامية بكل جوانبها .

إن عدم وجود مجتمع تقوم أنظمته المختلفة على الإسلام يحد من قدرة البنك
الإسلامي على الانطلاق والابتعاد عن البحث عن الحيل الشرعية عند ممارسته
لنشاطه التمويلي .

خامساً : الظاهرة المشتركة بين البنوك الإسلامية التي تمارس الأعمال البنكية
تتمثل في أن نشاطها في الأغلب يتركز على الاستثمار المتوسط الأجل والطويل
مثل تكوين الشركات المساهمة في تمويل الأعمال الاستثمارية ، إلا أن مساهمتها في
حل مشكلة التمويل قصير الأجل الذي يمثل المشكلة الرئيسة التي يعاني منها الناس
في المجتمع المعاصر محدودة ، وتأخذ الشكل الذي تمارسه البنوك في التمويل قصير
الأجل صوراً من أنواع البيوع التي دجنت من خلال البحث عن المخارج الفقهية
حتى يتم تلاؤمها مع واقع التمويل قصير الأجل القائم على الفائدة الربوية وبين
الرغبة في الابتعاد عن الربا مما أفقد البنوك الإسلامية قدرتها على أن تمارس دور
الريادة في تغيير الاتجاه الربوي القائم في النظام البنكي السائد في العالم الإسلامي ،
وهو ما سوف نحاول مناقشته في الحلقات القادمة بدراسة صور التمويل قصير
الأجل الممارس من قبل البنوك الإسلامية ، وذلك بسبر غور صحة وسلامة
المنطلقات الشرعية بقصد تقويم هذه الصور من الممارسات ، مع الإشارة إلى
البدائل الممكن ممارستها .

سادساً : ضعف دور الرقابة الشرعية في البنوك الإسلامية وهامشيتها ؛
فالرقابة الشرعية يقتصر دورها على الإفتاء والبحث عن مخارج فقهية لما يقترحه
الممارسون ، مع قصور في التصور العملي التطبيقي ؛ فالرقابة الشرعية لا تمارس
عملية الفحص والاطلاع على مراحل عمليات إقرار التمويل والتأكد من أن

الإجراءات التي تُمارس تتفق مع الشريعة ، بجانب أن أجهزة الرقابة الشرعية لا
تمتلك الخبرة البنكية التي تساعدها على إيجاد البدائل السليمة ، وإنما يقتصر دورها
في الإفتاء إذا طلب المديرون منها ذلك ! . إن هذا الدور يفقد أجهزة الرقابة
الشرعية فاعلية التأثير على تطوير البنك لأساليب ممارساته ، كما لا يتيح لها
اكتشاف الخلل الشرعي عند التطبيق ، إن أعضاء الهيئات الشرعية في الأغلب غير
متفرغين للعمل البنكي ، وبالتالي : يتصف عملهم بالصفة الاستشارية .

إن مناقشة واقع التعامل وفق ما أتيح لنا من معلومات عن كيفية ممارسة
البنوك الإسلامية لنشاطها التمويلي لا يعني جحد أهمية وجود هذه البنوك ولا غمط
حق من قام على تأسيسها وبذل الجهد والمال في سبيل ظهورها ، ولكن مناقشة هذا
الواقع إنما قُصد به النصح ، فتجربة البنوك الإسلامية لا تنسب إلى أصحابها ،
وإنما تنسب إلى الإسلام ، وبالتالي : فالتأثير السلبي سوف ينعكس على إمكانية
توسيع القاعدة البنكية الإسلامية ، وبالتالي : إضعاف المطالبة بتحويل النظام البنكي
القائم على الربا إلى نظام يُنتفى فيه الربا ، فالممارسة الخاطئة للعقود الشرعية التي
لويت أعناقها من خلال البحث عن مخارج شرعية : لا تختلف في النتيجة عما يتم
من ممارسته في البنوك الربوية ، لهذا : نجد في الآونة الأخيرة اتجاه بعض البنوك
الربوية إلى إيجاد أقسام للمعاملات الإسلامية ضمن الصيغ التي تمارسها البنوك
الإسلامية ؛ لكون هذه الصيغ لا تختلف في النتيجة عن الصيغ التي تمارس من قبل
البنوك الربوية ، غير أنها أُلبست باللبوس الإسلامي ، كما سوف نناقشه في حالات
من الصيغ المطروحة من قبل البنوك الربوية بقصد جذب مدخرات بعض الفئات
الاجتماعية في المجتمعات الإسلامية التي تشعر بالجزع من أكل الربا ، وفي الوقت
نفسه : ترغب في الحصول على عائد مضمون بدون مخاطرة .

هموم ثقافية

كيف نحمي ثوابتنا .. ؟

عبد العزيز كامل

كان الحديث في لقاء سابق ؛ عن ظاهرة باتت شبحاً مهدّداً بالانفصال روابطنا ، وبالانفصام عرانا ، ألا وهي : التزحزح عن ثوابتنا أو بعض ثوابتنا في قضايانا المعاصرة الكبرى ، حيث لا تكاد تبقى لنا قضية إلا وقد استهدفت بالاختلاف أو استهلكت بالمزايدة من بعض من يتتبع اختلافات العلماء والدعاة في عالمنا الإسلامي ليبرز منها عند الطلب ما يوافق غرضه وهواه .

إن هذا يهدد الهدف المنهجي الصادق لكل مسلم مشفق ناصح ، ألا وهو : اتفاق فصائل العاملين للإسلام على حدودٍ دنيا من الأهداف ، يتبناها الجميع ، ويسيرون نحو تحقيقها بخطًى ثابتة ، وإلا فعلى أي شيء نجتمع في العمل للدين إذا تميعت عقيدة الولاء والبراء ، وتراجعت قضية تحكيم الشريعة في بلاد المسلمين ، وبهتت صورة الكفاح الصادق لنصرة الإسلام ، وبردت العواطف تجاه المستضعفين ، وخفقت الأصوات عن إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وأطفئت في داخلنا جذوة التحرق لانتصار التوحيد ، وخمدت فورة التوثب لعبور الهزيمة والتخلف ؟ ! .

من المستفيد إذا قعدنا وقام غيرنا ، وكسلنا ونشط سوانا من : أتباع الديانات الباطلة ، والمذاهب المنحرفة ، والأفكار الضالة ؟ !

إن الكثيرين من المرجفين والمبطلين قد انطلقوا يبشرون بأفول نجم التدين ، وذهاب بريق الصحوة ، وانحسار مَدّ الدعوة ، فهل نعيب عليهم أن أقررنا أعينهم بما يشتهون ؟ !

إننا لن نستطيع هذه المرة أن نعلق مسؤولية عدم تحقيق الأهداف على مشجب ضخامة التحدي ومؤامرات الأعداء ، بل الأمر فينا ومنا ، وعقباه إلينا وعلينا ، حيث بتنا نفض جموعنا عن قضايانا المحورية ، ونصرف وجوهنا عن همومنا الجادة .

والخطر كل الخطر ، أن تتم عمليات الإشغال والانشغال عن هموم الإسلام باسم الإسلام ، ويتم الصرف عن العمل باسم العلم .

ولكل هذا فإن إعمال الفكر ، وكد الذهن من أَجْلِ استجماع أسباب حماية الثوابت يطرح نفسه أمراً مهمّاً ، ولن يكون ذلك إلا باستلهام روح النصيحة لله ولرسوله ولخاصة المسلمين وعامتهم ، واستشعار أهمية تغليب المصالح على المواقف الخاصة ، واستبعاد تعرض ثوابت الدين للمخاطر من أجل الحفاظ على الخواطر .

ويظهر لنا من خلال تتبع أحوال السلف مع أمانة المحافظة على العلم والدين ، أن هناك أسباباً تُعين مراعاتها على حماية الثوابت ، منها :

1- لا مجاملة في الحق :

فالحق قديم ، وهو يعلو ولا يُعلى عليه ، ومن نوقره من أجل الدين لا ينبغي أن يرتفع فوق حقائق الدين ، ومن الضوابط في ذلك عدم الخلط بين الصلاح الشخصي والخطأ العلمي ، فكل إنسان بل كل إمام يؤخذ منه ويرد إلا صاحب الحجرة كما قال الإمام مالك والزلة من العالم أمر وارد ، وهو قبلها وبعدها : عالم ، وبمقتضى علمه لابد أن يعذر الناس في رد زلاته ، وإلا فالأمر كما قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : يفسد الناس ثلاثة : أئمة مضلون ، وجدال منافق بالقرآن ، وزلة العالم [1] ، فالمجادلة في الزلات والأخطاء إفساد للعلم ، ومحاباة على حساب الدين ، وقد قال الإمام أحمد : ليس في الدين محاباة [2] .

2- من احترام العالم ألا يُسأل إلا فيما يعلم :

ذلك أنه لا ينبغي في الأصل أن توجه للعالم الأسئلة في غير تخصصه ، خاصة إذا كانت مبتورة أو ملتوية ، أو موجهة لتحصيل غرض مبيت ، فهذا من التغرير بالعالم والتوريط له ، وهذه هي (الغَلُوطات) التي نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عنها ، في الحديث الذي رواه أبو داود في سننه عن معاوية (رضي الله عنه) أنه -صلى الله عليه وسلم- نهى عن الغلوطات [*].

قال الخطابي : الغلوطات : هي شرار المسائل ، والمعنى : أنه نهى أن
يعترض العلماء بصعاب المسائل التي يكثر فيها الغلط ليستزلوا بها ، ويستسقط
رأيهم فيها [3] ، وإن كان لابد من تلك المسألة ، فلتطرح على المجامع العلمية ،
التي تقلبها من جميع جوانبها التخصصية ، فهذا أدعى إلى الاحتياط للدين ، وأسلم
للفتوى .

3- من الاحترام للعلم ألا يُجاب في شيء إلا بعلم :

فمن الآفات التي قل التحفظ منها في زماننا : المبادرة إلى إعطاء الجواب على
سؤال مباغت ، دون مراجعة للنصوص والأقوال ، وقد كان شأن الصحابة أن
يجمعوا كبار فقهائهم لكبار المسائل ، فهذه سنة من سنن الخلفاء الراشدين التي ينبغي
أن نعض عليها بالنواجذ ؛ قال عثمان بن عاصم ، التابعي الجليل : إن أحدهم ليفتي
في المسألة ، لو وردت على عمر بن الخطاب لجمع لها أهل بدر ، فينبغي لمن
يستفتى أن يتحصن ب (لا أدري) حتى يدري ؛ قال ابن عباس (رضي الله عنه) :
إذا ترك العالم (لا أدري) أصيبت مَقَاتِلُه [4] .
وقال الإمام مالك : ذل وإهانة للعلم أن تجيب كل من سألك [5] .

4- احترام لا تقديس :

فإذا كان احترام أهل العلم ديناً وتقوى ، فحفظ العلم نفسه للعمل هو الدين
والتقوى ، فعلماء أهل السنة درجوا على استبعاد وساوس العصمة لغير الأنبياء ،
وتناقلوا تلك المقولة النفيسة : اقتدوا بالميت ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتن وقد كان
سعيد بن المسيب (رحمه الله) لا يكاد يفتي فتوى أو يقول شيئاً إلا قال :
اللهم سلمني ، وسلم مني [6] ؛ ولهذا ينبغي أن يكون ربط الناس دائماً بمنهاج السلف ، لا بنسبة
الأشخاص إليهم .

5- كلما عظم الأثر عظمت المسألة :

ذلك أن القضية ، كلما كان لها ارتباط بقطاع أكبر من الأمة : كلما عظمت
المسؤولية في الكلام فيها ، أو نقل الكلام فيها .. وفي عصرنا : لا تصلح

الاجتهادات الفردية في القضايا المصيرية ، ولا يصح السكوت عن خطأ علمي من
بقية أهل العلم ، فهذا أيضاً من مسؤولية العلم ، فكما أن كتمان العلم
ابتداءً لا يجوز : فإن السكوت عن بيان الخطأ فيه أيضاً لا يجوز ، وقد قال النبي -صلى الله عليه
وسلم- في الحديث الذي رواه أبو داود في سننه : من سُئل عن علم فكتمه : ألجمه
الله بلجام من نار يوم القيامة [7]، قال الشارح : وكلما كان العلم المسؤول عنه مما
يترتب عليه العمل والمسؤولية ، كانت الضرورة أشد لبذل العلم ، قال الخطابي :
هذا في العلم الذي تترتب عليه الفروض [8] أما السكوت عن إظهار الحق أو
استظهاره من مفت أو مستفت فإنه هلكة كما وصفه قتادة ، وحرام كما قال عنه محمد
بن كعب القرظي : لا يحل لعالم أن يسكت على علمه ، ولا للجاهل أن يسكت على
جهله [9] .

6- الاحتياط عند النظر في القول المتفرد أو الجديد :

وخاصة إذا لمحت فيه آثار الخلط بين مواطن الاجتهاد وموارد النص ، أو
تنزيل الأصول منزلة الفروع ، أو إيقاع الأحكام على غير الوقائع ، ولا ينبغي
للجديد المتفرد من القول أن يأخذنا ببريقه ، حتى ننظر من أين أتت تلك الجدة ، وممَ
استمد ذلك التفرد ، ولا نعلم مسألة من القضايا الكبار التي سبقت الإشارة إلى بعضها
إلا ولأهل العلم قديماً وحديثاً كلام فيها ، يفرض على من تكلم فيها لاحقاً ألا يهمله أو
يلغيه ؛ قال الإمام أحمد (رحمه الله) : من تكلم في شيء ليس له فيه إمام ، أخاف
عليه الخطأ ، وقال : ينبغي لمن أفتى أن يكون عالماً بقول من تقدم ، وإلا فلا
يفتي [10] .

7- الاحتياط عند تنزيل الأحكام على الوقائع :

فكم من قضية تحشد فيها نصوص وأقوال موضوعة لقضية أخرى ، فلهذا :
يبدو عند التمحيص والنظر أن حكمها غير حكمها ، لأن واقعها غير واقعها ،
ولهذا : فإن ابن القيم (رحمه الله) عندما اشترط في المفتي أن يكون فقيهاً بالواقع المحيط
بالمسألة (في كتابه إعلام الموقعين) فإنه لم يكن فقط محتاطاً بهذا للفتوى ، بل كان

حامياً ومراعياً لحرمة النصوص أن تستخدم في غير محلها ، وفي الصحيح أن عمر
بن الخطاب (رضي الله عنه) كان يقول : يا أيها الناس اتهموا الرأي على الدين ،
فلقد رأيتني (يوم أبي جندل) ، ولو استطعت لرددت على رسول الله -صلى الله
عليه وسلم- أمره [11] .

8- دقة السؤال وأمانة السائل :

فليست الأمانة مطلوبة فقط من المسؤول ، بل من السائل أيضاً ، فمن أمانته
أن يحسن صياغة السؤال ، ويجرده من الإيهام والإبهام ، وقد عد العلماء حسن
السؤال في أول مراتب العلم .

ومن أمانة السائل أيضاً : أن يتحرى أمانة المسؤول وصدقه وأهليته ، قيل
لعبد الله بن المبارك : كيف نعرف العالم الصادق ؟ قال : الذي يزهد في الدنيا ويقبل
على الآخرة .

9- دقة الجواب وأمانة المسؤول :

فالعالم الأمين لا يجيب على السؤال مجرداً ، بل ينظر في القرائن المحيطة
بالسائل ، فلعله يستعين بالعلم على البطالة ، أو يستخدم الفتوى في ضلالة ، أو
يبتغي الرفعة على صنعة الدين ، أو يريد تسخيره لهدف دفين .

ولهذا كان ديدن العلماء والمصلحين أن يتأسوا برسول الله -صلى الله عليه
وسلم- في النظر إلى حال السائل قبل إعطائه الجواب ، وفي عدم التمكين لمن يريد
أن يختل الدنيا بالدين ، قال ابن مسعود (رضي الله عنه) : لو أن أهل العلم صانوا
العلم ووضعوه عند أهله : لسادوا أهل زمانهم ، ولكنهم وضعوه عند أهل الدنيا
لينالوا من دنياهم فهانوا عليهم [12] وقال الإمام أحمد : ليتق الله عبد ولينظر ما
يقول وما يتكلم ، فإنه مسؤول [13] .

10- التماس العذر لا يكفي عن أخذ الحذر :

وذلك فيما قد يكون من مؤامرات خارجية في الفتوى ، فالعذر من الدين ،
ولكن الحذر أيضاً من الدين ، فليحذر السائل وليحذر قبل ذلك المسؤول من التفريط
في متابعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن

تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [النور : 63] ، قال سفيان الثوري : لقد كان الرجل يستفتى فيفتي وهو يرعد [14] .

وأخيراً نقول :

لا ، لإسقاط الرموز :

وقد يسأل سائل ، وما علاقة هذا بحماية الثوابت ؟ ، والجواب : إن هناك أشخاصاً اعتباريين ، يقفون بمجموعهم خلف ثوابتنا يحمونها ويذودون عنها ، وهم مجموعة العلماء والعاملين والدعاة المخلصين في مختلف بلدان العالم الإسلامي ، أولئك رضيتهم الأمة الواعية والْتفّت حولهم الشعوب المدركة ، وحازوا احترامها فصاروا رموزاً عندها للدعوة والدين ، فهؤلاء لا ينبغي أن نسقط كل يوم منهم واحداً من أعين الناس لصواب تخطاه ، أو خطأ تغشاه ، فالخطأ من العالم أو الداعية لا ينبغي أن يصير خطيئة ، يستباح من أجلها عرضه ، ويُنهش بسببها لحمه ، ذلك أن من تركنا رأيه اليوم في مسألة ، سنحتاج إلى رأيه غداً في مسائل ، ومن لم يكن اليوم في قضية موفقاً لعله سيكون غداً في غيرها متفوقاً ، فنحن إذا هدمنا هذا الرمز من مصر اليوم ، وذلك الرمز من الشام غداً ، وذاك الثالث من اليمن أو غيرها بعد غدٍ ، من يبقى لنا ؟ ومن يتحدث في الناس باسمنا ويذود عن ديننا ؟

إن ثوابتنا ستظل تتساقط بقاياها كل يوم ، مع كل رمز نسقطه ، لأن المصداقية عند عموم الناس وللأسف لا تتجزأ .

حقّاً إنها مهمة صعبة ... أن نحمي ثوابتنا وأن نُبقي في الوقت نفسه على تماسكنا ، ولكنها يسيرة على من اتقى الله وعدل .

---

(1) الآداب الشرعية لابن مفلح : ج2 ، ص46 .
(2) المصدر نفسه : ج2 ، ص142 .
(*) أخرجه أحمد : ج5 ، ص435 ، وأبو داود في كتاب العلم ، باب التوقي في الفتيا ج4 ، ص65 ، وإسناده ضعيف - البيان - .
(3) عون المعبود ، بشرح سنن أبي داود ج10 ، ص90 .
(4) الآداب الشرعية لابن مفلح : ج2 ، ص61 .
(5) الآداب الشرعية لابن مفلح : ج2 ، ص61 .
(6) الآداب الشرعية لابن مفلح : ج2 ، ص62 .
(7) صحيح سنن أبي داود : ج2 ، ص696 .
(8) عون المعبود بشرح سنن أبي داود : ج10 ، ص92 .
(9) تفسير القرطبي : ج4 ، ص304 ، تفسير الآية 187 من آل عمران .

(10) الآداب الشرعية : ج2 ، ص60 .
(11) راجع : إعلام الموقعين ، ج1 ، ص8788 .
(12) الآداب الشرعية : ج2 ، ص48 .
(13) الآداب الشرعية : ج2 ، ص59 .
(14) الآداب الشرعية : ج2 ، ص59 .

نص شعري

مَعْرِض الهزيمة

شعر : عبد الله بن عبد الكريم الخميس

سئمتُ وقد شابةَ اليومُ أمسا   طِبتُ لدى الجُرحِ بالموتِ نفسا
وما بي قُنُوطٌ ولكنّ عصري   يُسَامُ به الشتّمّ خنقاً ودهسا
ألم يأنِ أن نحتوي عِزّةَ الدينِ   نُحْيي لإسلامِنا الحُرّ عُرسا
شربنا من الذّلِ حتى ارتوينا   كَرَعنا على الكُرهِ كأساً فكأسا
كِنانَتُنا أُتخِمَتْ بالسهامِ   ولم نَحْتَمِلْ طيلةَ الحَربِ قوسا
تناحُرُ فُرسانِنَا مَنْبَعُ الذّلّ   في الخَالِياتِ لنا كان درسا
شتَاتٌ عِصَابتُنا واختِلافٌ   وشرٌ يَدِبّ إذا الليلُ أمسى
وغَابٌ تمن الشوكِ تُدمي الحيارى   ثِمَارٌ خبيثٌ لما كان غرسا
وبين جوانِحِنا خَافِقَاتٌ   قُلُوبٌ هي الصّخرُ بل هي أقسى
فهلاّ نُجَدّدُ عَهْدَ التّآخي   ونقتُلُ (ذُبْيَان) فينا و (عبسَا)
ونتركُ ما فيه كُنّا افترقنا   ونخلِطُ ب (الخَزْرَجِيّةِ) (أوسَا)
و (داحِسَ) ما حازتِ السّبقَ حازتهُ   (غبراءُ) والحَادِثُ الشُؤمُ يُنْسَى
لِنُصبِحَ للعِزِ أهلاً وكُفْئاً   ونبعَث للنُورِ والدفءِ شمسا
وننعَم بالحُبّ حتى كأنّا   لنسمع للحُبّ قرعاً وجرسا
إذا ما افترقنا كأفلاكِ بَحرٍ   فإنّ العقيدة يا قومُ مَرسَى

من قضايا المنهج

المنطق التبريري

بقلم : محمد محمد بدري

حين نعاني مرضاً فكريّاً فرديّاً : قد يرى بعضهم الصمت حياله هو الواجب ..
أمّا حين يكون المرض الفكري وباءً يشل فعالياتنا ويضيّع جهودنا : فلا تعطي ثماراً
بقدر الثمن المدفوع ، فإن الكلام هنا يكون هو الواجب ..
وهذا المقال محاولة للتوفيق بين واجب الصمت وواجب الكلام في علاج وباء
المنطق التبريري في عملنا الإسلامي ، ليحل محله المنطق العملي الذي يدفعنا إلى
إتقان العمل بدلاً من تبرير الفشل .. ويعلّمنا ممارسة عبودية الأخذ بالأسباب التي
هي أحد مفردات عبودية التوكل .

لقد شاءت إرادة الله أن تحكم الكون سنن في غاية الدقة والعدل والثبات ، لا
يجدي معها تعجل الأذكياء ولا أوهام الأصفياء ، فهي لا تحابي أحداً من الخلق مهما
زعم لنفسه من مسوغات المحاباة ..
ومن سنن الله الثابتة : أن لكل حادث سبباً ، ومن وراء الأسباب تدبير اللطيف
الخبير .. فالنجاح في الوصول إلى الأهداف يرتبط بالوسائل الموصلة إليها ، وليس
بأمور سحرية غامضة الأسباب ، والمنتصر في أمور الدنيا هو من يأخذ بأسباب
النجاح سواء أكانت أهدافه سليمه أم لا ﴿ كُلاً نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا
كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ [الإسراء : 20] .
وقد كانت انتصارات المسلمين في (اليرموك) و (القادسية) و (عين جالوت)
وفق تلك السنن الثابتة .. وحين طرأ الخلل على سنن النصر الثابتة ، كانت هزائم
المسلمين في أحد وحُنين والجسر .
بل إن ذاكرة تاريخ المسلمين تحفظ أن هزيمتي أحد وحنين كانتا والنبي-صلى
الله عليه وسلم-بين صفوف المسلمين يقودهم ، ليعلم من سيرث الأرض من
المؤمنين : أن الخلل حين يقع في صفوف المسلمين تنطبق عليهم سنن الله .
ونحن نجزم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم ينهزم قط :
في أحد : رتّب رسول الله-صلى الله عليه وسلم-الأمور ، ورسم الخطة
العسكرية التي حقق الله بها النصر ، ولكن الرماة الذين اجتهدوا فأخطؤوا هم الذين
أضاعوا النصر .. فكانت الهزيمة التي تعلمنا منها أن صلاح العقيدة أهـم أسباب
النصر ، وأن من صلاح العقيدة الأخذ بالأسباب وطاعة القائد .
وفي حُنين : لم ينهزم النبي-صلى الله عليه وسلم- ، وإنما الذين انهزموا هم
حديثو العهد بالإسلام الذين أُعجبوا بكثرة العدد ورأوا فيه سبب النصر ، وغفلوا عن
مُسبب النصر .. ومع ذلك : نصر الله نبيه ببقية من أصحابه المخلصين ، لتعلم هذه
الأمة أن النصر لا يكون إلا بالصفوة المختارة التي بلغت قمة التجرد لله وغاية
الإخلاص لدينه .

وأمّا موقعة الجسر : فهي درس عظيم جدير بالتأمل والتدبر ..
لقد خرج أبو عبيد بن مسعود الثقفي (رضي الله عنه) على رأس جيش لقتال
الفرس ، فأرسل رستم إليه بهمن بن جازويه برسالة يقول فيها : إمّا أن تعبر النهر
(نهر الفرات) إلينا وندعكم والعبور ، وإمّا أن تَدَعُونا نعبر إليكم ، .. فنهى الناسُ
أبا عبيد عن العبور .. فلجّ وترك الرأي والمشورة ، وقال : لا يكونون أجرأ منا
على الموت .. فعبر إليهم فضاقت الأرض بأهلها .. واشتد الأمر على المسلمين ..
حتى إن أحد فيلة الفرس وطئ أبا عبيد فقُتل شهيداً .. وتتابع على أخذ اللواء سبعة
أنفس من ثقيف فقاتلوا حتى الشهادة ، وذهبت ريح المسلمين وانكشف أمرهم ،
وخسروا في هذه المعركة أربعة آلاف مقاتل .. وكانت خسارة كبيرة
للمسلمين كلهم ، أحس بعظمها خليفة المسلمين عمر بن الخطاب فقال : اللهم إن كل مسلم في حل
مني ، أنا فئة كل مسلم ، يرحم الله أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف ، أو تحيز
إلينا ، ولم يستقل (يعني برأيه) لكنا له فئة .
.. نعم لقد عبر أبو عبيد الجسر بشجاعة وإقدام وإيمان وحب للشهادة ، لكنه
لم يحسب للمعركة حسابها ، ولم يدرس أرض المعركة بشكل كاف ، وزاد على ذلك
بمخالفته لمن معه من أركان الجيش الذين نهوه عن العبور ، فلم ينته
واستقل برأيه ، فكانت هزيمة الجسر التي علمتنا أن النصر مع الإقدام يرافقه ، ولكن مع التبصر
والأناة ، وبعيداً عن الاندفاع الذي يهلك الجند ويأتي بالهزيمة ، ذلك أن الحماس
لشيء ما لن يخدمه ، ما لم يكن مشفوعاً بأسلوبه الفني الذي يحققه .
تلك بعض هزائم المسلمين ، وهذه بعض أسبابها .. ونحن لا نريد هنا أن
نعرض لهزائم المسلمين بكلياتها وجزئياتها ، فذلك موجود في مظانه من كتب السير
والمغازي ، وإنما هي مواقف مختارة أردنا منها التأكيد على أن سنن الله التي تحكم
الحياة جارية لا تتخلف ، وأن الأمور لا تمضي جزافاً ، وإنما تخضع لعلاقة تلازم
بين الأسباب والنتائج ، ولذلك فإن تخلف النتائج في أي أمر نُقدم عليه لابد أن يدفعنا

إلى خطوتين : الأولى : هو أن نفترض حدوث خطأ في عملنا .. والثانية : هو أن
نبحث بجد عن هذا الخطأ في أعمالنا لنصوبه .

تساؤل مهم وجوابه :

وفي ظلال هذا الفهم لطبيعة العلاقة بين الأسباب والنتائج ، نخطو في مقالنا
هذا خطوة أخرى فنتساءل : ما هي الأسباب وراء انحسار عملنا الإسلامي ، وعجزه
عن بلوغ أهدافه من عودة الإسلام إلى المجتمع وصبغه بصبغة الإسلام ، ثم تتويج
ذلك بقيام النظام السياسي الإسلامي ؟

سيرد البعض على الفور : علينا العمل ، وليس علينا إدراك النتائج ! !
وسيؤكد آخرون : لقد قمنا بكل ما نقدر عليه ولكن الظروف الاجتماعية والسياسية
والدولية لم تسمح بتحقيق النتائج ! !

وأمّا الذين يدينون بالجبرية السياسية فيرددون القوت الذي يقتاتون به عند كل
فشل : إن مكر أعدائنا من القوى المحاربة للإسلام وأذنابهم من العملاء الذين
تحركهم الأيدي الخفية .. إن مكر هؤلاء قدر غالب ليس لنا وسائل لدفعه ولا أسباب
لرده ! .

وأمّا الصنف الأخير فسيصحح بزعمه كلام هؤلاء كلهم : لا بل نحن في آخر
الزمان وهذه علاماته ، فلا يمر يوم إلا والذي بعده أسوأ منه .. ! ! !

وهكذا يظل القوم يلهثون في البحث عن كبش الفداء لتبرير الفشل والانحسار
ويتفننون في اختراع الأسباب لزحزحة المسؤولية عن عواتقهم وإلقائها على عاتق
الغير من أعداء وظروف وغيرها ، وهؤلاء هم الذين أصابهم وباء (المنطق
التبريري) .

لقد ضرب الله لنا مثلاً في القرآن لأناس أصابهم هذا المرض (المنطق
التبريري) ثم عافاهم الله منه بتوفيق أرشدهم وأعقلهم إلى الطريقة
الصحيحة لعلاجه ؛ فقال (عز وجل) : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا
مُصْبِحِينَ (17) وَلا يَسْتَثْنُونَ ﴾ [القلم : 17 18] .. لقد عزم هؤلاء على حرمان
المساكين من حقهم بقطف ثمار بستانهم في الصباح قبل أن يراهم أحد ، فعاقبهم الله :

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾
[القلم : 19 ، 20] .. وفي الصبح : ذهب أصحاب البستان ليتموا ما اتفقوا عليه ،
وفوجئوا بالمأساة .. مأساة استحالة النضارة في القطوف الدانية والثمار الزكية
الشهية إلى سواد مُدْلَهِم لا ينتفع بشيء منه ، بل هو صورة غضب الله ومؤاخذته لهم
على كفران النعمة بما أقسموا على منع الخير وقبض أيديهم عن عطاء من هم أهل
للعطاء ..

فماذا فعل أصحاب البستان ؟ لقد كان بعضهم مصاباً بالمنطق التبريري فأخذوا
في تصيد كبش الفداء والبحث عن أمر خارج عنهم كان هو السبب في بلائهم ،
فطمأنوا أنفسهم اطمئناناً خادعاً بأنه لم يحصل شيء ، فليست هذه جنتنا وإنما نحن
ضللنا الطريق ..

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ .. وحينما تأكدوا أنها هي وليست غيرها ،
كان التبرير الآخر الذي يقوم على تنزيه النفس وإلقاء التبعة على الظروف والقدر
﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ ..

وهنا بدأ أوسطهم وأعقلهم وأرشدهم في تعريفهم بالسبب الحقيقي لما هم فيه ،
والطريقة الصحيحة في النظر إلى المحن والمصائب .. ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴾،
إن المشكلة فيكم وليست خارجكم ، وأنتم الذين أخطأتم ..

هذا هو الطريق :

ولم يرتكب أصحاب الجنة حماقة التبرير للبقاء على الخطأ ، بل بدؤوا في
عملية التصحيح على الفور .. ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ .. ﴿ إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ إن الخطأ
عندنا ، والمشكلة بدأت من عندنا وليس من عند غيرنا ..

.. هذه الطريقة التي اتبعها أوسطهم هي ما يجب أن نسلكه في علاج تبريرنا
لعجزنا وانحسار عملنا الإسلامي ، فنقول : إن التبريرات التي نسوقها لتبرير فشلنا
وعجزنا عن تحقيق أهدافنا ما هي في حقيقتها إلا نتائج للأسباب الحقيقية التي يغفلها
عمداً أو جهلاً من أصيبوا منا بوباء المنطق التبريري .. ذلك المنطق الذي يعفينا من

أدنى مسؤولية أو تقصير ، ويفترض دائماً عدم وقوع أخطاء منا ، كانت هي السبب
في تأخر قطفنا لثمار أعمالنا ؟ ! .
.. ونحن نذكّر أنفسنا ، ونذكّر من أصابهم المرض منا ، فنقول : إذا كانت
الظروف هي سبب فشلنا في تحقيق أهدافنا ، فإن معنى ذلك أن أعمالنا دون مستوى
عصرنا ، لأننا لم نستعد لمواجهة تلك الظروف .
وإذا كانت خطط أعدائنا هي سبب فشلنا ، فما الذي يجعلها تنجح ؟
وإذا كان أذناب هؤلاء من العملاء الذين تحركهم الأيدي الخفية هم سبب فشلنا ، فمن الذي تسبب في وجود الأذناب ، وغطى الأيدي الخفية ؟ ..
وإذا كان وجودنا في آخر الزمان هو سبب فشلنا لأن كل يوم يكون أسوأ مما
قبله فهل يعني هذا أن محاولات المصلحين وجهودهم لابد أن تضيع سدى ؟ .
إن الحقيقة التي يجب أن ندين بها جميعاً : أننا نحن شئنا أم أبينا المسؤولون
عن فشلنا وهزائمنا ، وكل من يحاول أن يزحزح هذه المسؤولية عن عاتقنا ليلقيها
على عاتق الغير ، هو في الحقيقة يلحق بنا الضرر ويؤخر خروجنا مما نحن فيه .
إن من يعتقد أن مكر أعدائه هو القدر الغالب ، أو أن الظروف فوق طاقته :
سيتحرك بنفسية المهزوم الذي يرى أنه لن يستطيع فعل شيء ، وربما أسلمه ذلك
إلى الاستسلام للواقع على أنه التصرف الواقعي ، فيتقوقع على نفسه وينسحب من
ميادين العمل ليشغل نفسه بقضايا هامشية ، وإذا حاولت أن تشحذ همته للعمل على
التغيير ، رد عليك بقوله : كنت أقوى عزيمة منك ، كنت أحاول وأعمل وأجاهد ،
وتبين لي بعد سنين من التجارب المرة أن الأمور ليست بهذه البساطة ، وأن
محاولتي هذه كانت نوعاً من السذاجة والغفلة ! .
ولا يقل هزيمة عن هذا من يرى أن التغيير لا يخضع لسنة ارتباط النتائج
بأسبابها ، أو يرى أننا في آخر الزمان فيظل ساكناً في انتظار ظهور المهدي الذي
يصلح الدنيا دون جهود من أهلها ، وكلما دعاه أحد إلى العمل والتضحية من أجل

الإصلاح أجاب لسان حاله : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ،
ومهما كانت مرارة الفساد الذي يحيط به ، فإنه يبقى في انتظار ظهور المهدي الذي
قد يمر ألف عام أو أقل من ذلك أو أكثر دون أن يظهر ، بينما لو أخذ هذا وغيره
بالأسباب الموصلة إلى النصر وتغيير الواقع الفاسد لغيّر الله بهم هذا الواقع .

إن من يحاول التستر على أخطائنا وعدم الكشف عنها هو من يُسْلمنا إلى
المأساة الحقيقية تحت دعوى عدم التشهير بأنفسنا ، أو كشف عيوبنا أمام أعدائنا ..
ذلك أن هؤلاء يضعوننا في مرتبة أعلى من مرتبة أصحاب رسول الله- صلى الله
عليه وسلم-الذين بيّن الله في قرآنه أن ما وقعوا فيه من أخطاء كانت سبباً في
هزائمهم في أحد وحُنين .

قد يرد بعضهم بقوله : إن الابتلاء من سنن الدعوات ، وقد جرت حكمة الله
وسنته في رسله وأتباعهم أن يُدال لهم مرة ، وأن يُدال عليهم مرة أخرى ، ليتميز
الصادق من غيره .

ونحن نقول : إن هذا الكلام حق وصدق لا مرية فيه ، ونحن لا ننكر أن
الابتلاءات والمحن من سنن الدعوات .. بل هي طريق الرسل وأولياء الله ..
وواجب الذين يصابون بها هو الثبات على ما هم عليه .

ولكن ما نريده : أن يكون لدينا ملكة الفرقان بين الابتلاء والفشل بسبب الخطأ
في العمل .. ذلك أن الموقف الصحيح في الأول هو الثبات والبقاء على ما نحن
عليه ، أما الموقف الصحيح في الثاني فهو مراجعة الخطأ والتخلي عنه والبدء في
تداركه بالسير في الطريق الصحيح .

إن التفكير بطريقة المنطق التبريري الذي يفصل النتائج عن أسبابها تحت
دعوى أن علينا أن نعمل ، وليس علينا تحقيق النتائج هو في حقيقته مصيبة كبرى ؛
لأن ذلك يعني مثلاً أن المهندس الذي يشيد عمارة فتنهار لا يحاسب ! ! أو أن
الطبيب الذي يهمل في علاج مريض فيموت لا يكون مسؤولاً ومحاسباً ! !

إن الذين يرددون : علينا أن نعمل وليس علينا تحقيق نتائج .. هؤلاء يغيب
عنهم أن الصواب في الأعمال أصل قبولها في الآخرة وشرط نجاحها في الدنيا ..
وأن صواب الأعمال لا يتحقق إلا أن تكون أعمالنا وفق شروط الزمان والمكان ،
فالقيام بالأعمال خارج وقتها غيرمقبول ، كما أن إتيان النوافل بترك الواجبات من
ضعف الفقه .

إن أعمالنا من أجل التغيير لابد أن تكون في إطار أعظم أصل من أصول
التغيير وأصدقه في عالم الأنفس والمجتمعات ، وهو قول ربنا (عز وجل) : ﴿ إِنَّ
اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ طبقاً لفهمها الصحيح حسب سنن الله
في الكون ، وطبقاً للعلاقة بين ما هو في النفس وما هو خارج النفس من أوضاع
يطلب تغييرها ، بمعنى أن كل شيء يتوصل إليه بأسبابه المؤدية إليه ، فإذا كنا نريد
تغيير واقع منحرف ، فإن طريقنا إلى ذلك أمران :

الأول : إثارة السخط على الواقع المنحرف ، وإثارة الاهتمام بتغييره ، وزيادة
الوعي بالبديل ، والالتزام بهذا البديل .

الثاني : الإيمان بضرورة توفير القوة المؤيدة للتغيير التي تكفي لإزاحة القوة
الباغية المؤيدة للواقع المنحرف .

فإذا اقتصرنا على الأمر الأول من التغيير لما في النفس ، وهو : تغيير الرضا
بالواقع إلى السخط عليه ، والتطلع إلى إحلال بديله : سيحصل بإذن الله ما قابله فقط
من التغيير في الواقع .. أي سيحصل التغيير في الآراء والمطالب وسيلتزم الأفراد
بوصفهم أفراداً بما يمكنهم التزامه من الواقع المنشود .

فإذا ما حدث الأمر الثاني من التغيير لما في النفس ، وهو الإيمان بضرورة
توفير القوة المؤيدة للتغيير الكافية لإزاحة القوة المعادية عن طريقها ، وتوفرت
بالفعل تلك القوة .. حينئذ سيحصل التغيير الآخر .. وذلك :

إمّا بتخلي القوة المعادية عن المجابهة خوفاً من القوة الجديدة .

وإمّا أن تحصل المواجهة فيحكم الله بين الفريقين حسبما تقتضي حكمته

(سبحانه وتعالى) .. فإن كانت النتيجة نصراً لأصحاب الحق ، فبحول الله وتوفيقه
واتباع ما أمر به : كتب الله لهم هذا النصر .
وإن كانت الأخرى ، فلأمر يريده الله كان تأخير النصر .. ومن لحق من أهل
الحق بربه فهو بالشهادة أسعد .. وعلى الباقين استئناف السير على الطريق
المشروع المبرور حتى يأذن الله بالنصر ، ولكل أجل كتاب .
... تلك هي الطريقة الصحيحة في محاولة الخروج من الانحسار والفشل .
... وهذه هي الطريقة الصحيحة في تفسير الهزيمة بعد إتقان العمل ..
وبعد .. فإن (المنطق التبريري) يمثل أخطبوطاً يمد سيقانه إلى جل مجالات
أعمالنا الإسلامية ، ويشكل قيوداً وأغلالاً تنمو في ظلالها قابليتنا للهزيمة ، وتُقْتل
بسببها همتنا للتغيير ... ونحن ندرك أننا لن نقدر على علاج وباء المنطق التبريري
بمقالة تكتب عنه ، فذلك نوع من تسطيح الأمور والتفاؤل المفرط الذي يفقدنا الرؤية
الصحيحة .
ولكننا في الوقت ذاته لا نعتقد أنه لا علاج لهذا الوباء ، أو نقول كما يقول
لسان حال بعضهم : أقام العباد فيما أراد .. لن يكون إلا ما قد كان .. رفعت الأقلام
وجفت الصحف ... وغيرها من الأدلة السائرة التي يسوقها في غير موضعها
أصحاب (المنطق التبريري) .
وفقنا الله جميعاً للعلم النافع والعمل الصالح .

سياسة شرعية

العلاقات والحصانات الدبلوماسية
في الفقة الإسلامي والقانون الدولي
(3)

علي مقبول

تطرق الكاتب في الحلقتين الماضيتين إلى مفهوم التمثيل الدبلوماسي ومراحل تطوره
، ووضّح موقف القانون الدولي من الحصاناتوالامتيازات

الدبلوماسية ذاكراً : الحصانات الشخصية والقضائية ، والمالية ، وعدم خضوع دار الوكالة للقضاء
الإقليمي .. وفي هذه الحلقة يذكر الكاتب موقف الشريعة الإسلامية من هذه
الحصانات .

- البيان -

موقف الشريعة الإسلامية من الحصانات والامتيازات في القانون الدولي :

تمهيد :

الدعوة إلى السلام العالمي والتعايش السلمي من خلال العلاقات الدبلوماسية
تكاد تصم الآذان بضجيجها في هذا الزمان ، بل لقد أصبحت لكثرة القائلين بها كأنها
الحق الصراح وما عداها هو الباطل بادي الرأي للذي لا يعرف الأحكام الشرعية .

أما من يفهم الكتاب والسنة ويتمسك بهما : فلا تزيده كثرة النداء بتلك
الشعارات إلا مقتاً لها ولأصحابها ، لأنها دعوة مائلة عن نهج الحق .

وهذه الدعوة التي تنتشر اليوم إنما تنتشر وفقاً لمبادئ قانونية وضعية ما أنزل
الله بها من سلطان .

فالقانون الدولي العام الذي يتفرع عنه القانون الدبلوماسي ، ويعتبر
جزءاً منه ، الذي أكدته اتفاقية (فيينا) 1960م ، والذي وضعته لجنة القانون الدولي التابعة
للأمم المتحدة : يوجب أول ما يوجب على كل دولة : مراعاة أحكامه ؛ كما أكدت
ذلك المادة الأولى منه .

وهذا غير جائز ؛ فإن الواجب على الدولة المسلمة أن تراعي أحكام القرآن لا
أحكام القوانين الموضوعة من البشر [1] .

أولاً : الحصانة الشخصية :

اعترف العرب بأحقية السفير واحترامه وعدم إهانته ؛ لأنه مبعوث من أمم
أخرى ، ولما جاء الإسلام شملت الدولة الإسلامية السفراء الوافدين إليها بالأمان
والسلام مدة بقائهم في بلادها حتى يعودوا إلى أوطانهم ، وعُرف عن الدولة
الإسلامية منذ نشأتها الحرص التام على تمتع السفراء بما يعرف في الاصطلاح
الحديث المعاصر للقانون الدولي العام بقاعدة الحصانة الشخصية .

ثم إنه من القواعد المقررة في الشريعة الإسلامية [2] قاعدة تأمين المبعوثين
على أنفسهم حتى يعودوا سالمين إلى من بعثهم من أمرائهم ودولهم .
واحترام حرية السفراء سبق الإسلام بها القانون الدولي الحديث [3]؛ يقول
الله (تعالى) : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ المُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ
أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : 6] .
قال القرطبي : (وإن أحد من المشركين) أي : من الذين أمرتك بقتالهم ،
(استجارك) أي : سأل جوارك ، أي : أمانك وذمامك ، فأعطه إياه ليسمع القرآن ،
أي : يفهم أحكامه وأوامره ، فإن قبل أمراً فحسن ، وإن أبى فرده إلى مأمنه ، وهذا
مالا خلاف فيه [4] .
والممثلون الدبلوماسيون هم الذين يقومون بتمثيل دولهم ، وقد يريدون أن
يتعرفوا على تعاليم الدين أو عقد معاهدة ونحوه ، ولذلك ضمن الإسلام سلامتهم حتى
يعودوا إلى أوطانهم سالمين ، ومعروف منذ القدم أن هؤلاء الرسل يعطون مزايا لا
تتوفر لغيرهم .
ثم إنه يثبت الأمان للرسول الموفد من قومه ، أو دولته إلى الدولة الإسلامية
بمجرد أن يطأ أراضي الدولة الإسلامية .
قال السرخسي (رحمه الله تعالى) : وإذا وجد حربي في دار الإسلام ، فقال :
أنا رسول ، فإن أخرج كتاباً عرف أنه كتاب ملكهم : كان آمنا حتى يبلغ رسالته
ويرجع ، لأن الرسل آمنة في الجاهلية والإسلام ، وهذا لأن أمر القتال والصلح لا
يتم إلا بالرسل ، فلابد من أمان الرسل ليتوصل إلى المقصود ، ثم إن الرسول لا
يكلف بإقامة البينة على أنه رسول وإنما يكتفي بالعلامة ، والعلامة أن يكون معه
كتاب يعرف أنه كتاب ملكهم ، فإذا أخرج ذلك فالظاهر أنه صادق ، والبناء على
الظاهر واجب فيما لا يمكن الوقوف على حقيقته ... وإن لم يخرج كتاباً أو أخرج
ولم يعلم أنه كتاب ملكهم فهو وما معه فيء ، لأن الكتاب قد يفتعل وإذا لم يعلم أنه

كتاب ملكهم بختم وتوقيع معروف فالظاهر أنه افتعل ذلك [5] .
وقد ذكر أبو يوسف (رحمه الله) في كتاب الخراج : إن الحربي إذا قال : أنا
رسول الملك بعثني إلى ملك العرب ، وهذا كتاب معي ، وما معي من الدواب
والمتاع والرقيق فهدية إليه ، فإنه يصدق ويقبل قوله إذا كان معروفاً ، فإن مثل ما
معه لا يكون إلا على مثل ما ذكر من قوله إنها هدية من الملك إلى ملك العرب ،
ولا سبيل عليه ولا يتعرض له ولا لما معه من المتاع والسلاح والرقيق والمال ، إلا
أن يكون معه شيء له خاصة حَمَله للتجارة ، فإنه إذا مر به فعليه العشور [6] .
وهناك كثير من الأدلة الواضحة على عصمة المبعوث أو الرسول واحترام
شخصه ، وقد نص الفقهاء (رحمهم الله) في كتبهم على أن الرسل لا تقتل .
قال الأوزاعي : ويجوز عقد الأمان للرسول والمستأمن لأن النبي-صلى الله
عليه وسلم-كان يؤمن رسل المشركين ، ولما جاءه رسولا مسيلمة قال : لولا أن
الرسل لا تقتل لقتلتكما [7] ولأن الحاجة تدعو إلى ذلك فإننا لو قتلنا رسلهم لقتلوا
رسلنا فتفوت مصلحة المراسلة [8] .
وخلاصة القول : أن السفراء منذ القدم لا يتعرض لشخصهم بالإهانة أو
التضييق ، وقد يحصل أن يمد السفير دولته ببعض المعلومات ، وكذلك أيضاً يفعل
سفراء الدولة الإسلامية ، إلا أن الفقهاء قرروا ألا يكون محض عمل السفير هو
التجسس أو الإفساد ، فإن كان كذلك فإنه يُنبَذ إليه ، أي : يبعد من البلاد ولولي
الأمر بما له من حق الرقابة على المستأمنين والرسل أن يلاحظ تحركاتهم ويراقب
نشاطهم وليس من الحكمة أن يركن إليهم ، فإذا أحس منهم خطراً أبعدهم [9] .

ثانياً : الحصانة القضائية :

أما الحصانة القضائية التي تقضي بعدم خضوع رجال السلك الدبلوماسي
للولاية القضائية للدولة الموفد إليها ، سواء في المسائل الجنائية أو المدنية أو

الإدارية ، أما هذه الحصانة فإن التشريع الإسلامي يختلف فيها عن القانون الدولي ،
فالمستأمن والسفير يسأل كل منهما مدنيّاً وجنائيّاً عما يرتكبانه من أعمال في بلاد
الإسلام [10] ، على أساس أن السفير أو الرسول يعتبر مستأمناً لدى الدولة
الإسلامية بأمان منحه الإمام ، وهذا المستأمن بدخوله أرض الإسلام بعد إعطائه
الأمان يعتبر ملتزماً بأحكام الشريعة الإسلامية ، ويسري عليه ما يسري على الذمي
من أحكام ، فيعاقب الجميع في دار الإسلام دفعاً للفساد ، ودفع الفساد واجب ملزم
لكل من يقيم بين المسلمين ولو مؤقتاً ، والمجرم خاصة إذا كان إجراماً متعدّياً لا
يستحق الحماية ، ولا يصلح لأداء وظيفته .

والحاصل : أن الأحكام الإسلامية تطبق على المستأمن فيما يتعلق بالمعاملات
المالية بالاتفاق ، فإنه يمنع من التعامل بالربا ، لأن ذلك محرم في الشريعة
الإسلامية ، وكل بيوعه ومعاملاته يطبق عليها النظام الإسلامي لأنه يتعامل مع المسلمين ، فلا
يطبق عليه إلا شرع المسلمين ، وذلك أمر بدهي ، ولو كان التعامل بينه وبين ذمي
أو مستأمن فإنه خاضع للأحكام الإسلامية لا يحكم بغيرها ، لأن السيادة للدولة
الإسلامية مفروضة على كل رعاياها .

وبالنسبة للعقوبات : فقد قرر الفقهاء أنه إذا ارتكب أمراً فيه اعتداء على حق
مسلم نزل به العقاب المقرر في الشريعة الإسلامية وطبقه الحاكم ، وهو خاضع له ،
وكذلك إذا كان الاعتداء على ذمي أو مستأمن مثله ، لأنه يجب إقامة العدل وإنصاف
المظلوم من الظالم مادام مقيماً في دار الإسلام .

وإن كان الاعتداء على حق من حقوق الله (تعالى) كالزنا ، فإن جمهور الفقهاء
قرروا أخذه بالعقاب المقرر ، إذ هو لم يجئ إلى ديار المسلمين ليسعى فيها بالفساد .

وخالف في ذلك أبو حنيفة فقال : إن العقوبات التي تكون حقّاً لله وهي ما
تكون حماية خالصة للفضيلة أو يكون حق الله فيها غالباً كالسرقة لا يقام الحد فيها
على المستأمن ، وإن كان يضمن السرقة ؛ لأن الحاكم المسلم هنا ليس له عليه ولاية

كاملة ، إذ إن إقامته مدة معلومة ، كما أنه قد يكون رسولاً لدولة ، والرسل لا
تقتل [11] .
إذن : الحصانة القضائية التي يخلعها القانون الدولي على الممثلين
الدبلوماسيين لا يعترف بها الإسلام ، ولهذا فإنّ فقهاءنا (رحمهم الله) لا يعطون
السفراء امتيازاً زائداً يفضلون به المستأمنين الدبلوماسيين على المستأمنين العاديين ،
والقاعدة العامة : أن المسلمين والمستأمنين عامة : سفراءهم ، وتجارهم ، وسياحهم ، وجميع فئاتهم خاضعون للأحكام والأنظمة الجنائية والمدنية التي تفرضها الشريعة
في بلاد المسلمين ، ولا يعفى غير المسلمين إلا من العقوبة المتعلقة بحق الله (تعالى)
في قول بعض الفقهاء كما سبق ذكره .
والرأي المختار في تطبيق الحدود على السفير أو الرسول الممثل الدبلوماسي
الذي يتفق مع أدلة الشريعة أن السفير أو المبعوث أو الدبلوماسيين عامة يجب أن
يلتزموا بأحكام الإسلام مادامو مقيمين في الدولة الإسلامية ؛ لأن الموافقة على
إعطائهم الأمان لم يتضمن قبول مخالفتهم لأحكام الشريعة .
ولا يُسوّغ مبدأ المعاملة بالمثل أو الحصانة التي تمنحها بعض الدول للسفراء
أو المبعوثين أن يخالفوا أحكام الشريعة الإسلامية في أرض الإسلام ، وهذا ما لا
يجوز شرعاً ، ولذا : يجب تطبيق الحدود والقصاص على كل مخالف لأحكام
الشريعة الإسلامية سواء أكان سفيراً أو غيره ؛ نظراً للمفسدة التي قد تحدث من
تعطيل هذه الحدود .
ورب قائل يقول : كيف يتم هذا والدول قد اتفقت على إعطاء الحصانة
القضائية للدبلوماسيين ؟
والجواب : أن اتفاق الدول لا يعطل أمراً شرعيّاً ولا حدّاً من حدود الله ، لأن
المسلمين يجب أن يلتزموا بشرع الله ولا يعقدوا أي اتفاق فيه تعطيل
لأحكام الإسلام ، وقد نهى الرسول-صلى الله عليه وسلم-عن ذلك فقال : كل شرط ليس في كتاب
الله فهو باطل [12] وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- الصلح جائز بين المسلمين
إلا صلحاً حرم حلالا أو أحل حراماً [13] .

ولذا : فإن أي اتفاقية معاهدة لتبادل السفراء والمبعوثين أو للحصانة
الدبلوماسية تخالف شرع الله لا ينبغي أن يوافق عليها المسلمون ، بل يجب أن
يعدلوها بما يتفق وشرع الله .
لذا : يمكن للدولة الإسلامية أن تعقد الاتفاقيات بشأن التبادل الدبلوماسي بينها
وبين الدول الأخرى ، وتشترط في هذه الاتفاقيات أن تتم المعاملة بالمثل بحيث
تطبق أحكام الشريعة الإسلامية ، مقابل تطبيق قوانين الدول على السفراء المسلمين
بما لا يحل حراماً أو يحرم حلالا .
وفي هذا زجر ومنع للدبلوماسيين من ارتكاب الجريمة أو الإفساد في الأرض ، ومدعاة لالتزامهم بأحكام الإسلام في الدولة الإسلامية [14] .

ثالثاً : حصانة عدم خضوع دار الوكالة ومحتوياتها للقضاء الإقليمي :

لم تكن في فجر الإسلام بعثات دبلوماسية دائمة ، وإنما كانت بعثات دبلوماسية
مؤقتة للقيام بعمل معين يغادر بعده المبعوث أرض الإسلام إلى مأمنه بعد انقضاء
أجل الأمان .
ثم إن الإسلام لا يعرف حرماً آمناً إلا الحرمين الشريفين في مكة والمدينة ،
فليس لدور الوكالات السياسية عنده هذه الحرمة الغالية التي تمس سيادة بلاده .
بيد أن الدولة الإسلامية كانت تستقبل السفراء في منازل خاصة تستضيفهم
فيها ، مثل منزل رملة بنت الحارث بن سعد في المدينة على عهد الرسول-صلى
الله عليه وسلم- ، والمنزل الذي كان يعرف باسم دار الضيفان ودار صاعد في بغداد
حيث كانت بمثابة دار للضيافة ، وفي أواخر أيام العباسيين كانوا يعطون داراً
يسكنون فيها ، أو ينزلون في مدرسة من المدارس ، أما في دمشق فكانوا ينزلون في
دار الضيافة ، وكذلك في القاهرة .
وكانت الدولة الإسلامية مع ذلك تسمح للسفراء بممارسة حريتهم الكاملة في
إقامة شعائر دينهم ، حتى إن الرسول-صلى الله عليه وسلم-سمح لوفد نجران
النصراني بأن يؤدي شعائره الدينية في المسجد ؛ قال ابن القيم (رحمه الله) بعد أن

ذكر قصة وفد نجران : ومن فقه هذه القصة :
1- جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين .
2- تمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين وفي مساجدهم [15]
وذلك إذا كان هذا عارضاً ، فلا يمكنون من اعتياد ذلك بإقامة الكنائس والمعابد
الدائمة .

هل يجوز للمبعوث الدبلوماسي إلى دار الإسلام منح الملجأ لغيره ؟

سبق معنا أن هناك خلافاً في القانون الدولي في جواز إعطاء حق اللجوء
السياسي للفارين ، وأن هذا الخلاف غير موجودفي دول أمريكا اللاتينية [16] ، أما
بالنسبة إلى الدول الأخرى فهناك نزاع بينهم ، ولكن على فرض صحته ، هل يجوز
للمبعوث الدبلوماسي في دار الإسلام أن يعطي الأمان لغيره من المستأمنين ؟

الواقع أن ما يعطى للمبعوث الدبلوماسي من مزايا هي لتسهيل مهامه
ومباشرتها بكل حرية ومن باب المعاملة بالمثل ، ومنح الأمان من الممثل الدبلوماسي
ليس من الأمور التي تدخل في اختصاصه ، ولذلك نجد ابن قدامة (رحمه الله) يقول : ولا يصح أمان كافر وإن كان ذميّاً ؛ لأن النبي-صلى الله عليه وسلم-قال : ذمة
المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم [17] ، فجعل الذمة للمسلمين فلا تحصل لغيرهم ،
ولأنه متهم على الإسلام وأهله فأشبه الحربي [18] . وقال ابن حجر في الفتح :
وأما المجنون فلا يصح أمانه بلا خلاف كالكافر [19] ، ومعنى ذلك : أن الفقهاء
اتفقوا على أن الذمي لا يعطي الأمان لغيره من المستأمنين ، إلا ما روي عن
الأوزاعي أنه قال : إن غزا الذمي مع المسلمين فَأمّن أحداً ، فإن شاء الإمام أمضاه
وإلا فليرده إلى مأمنه [20] .

ولأن من شروط الأمان : أن يكون المؤمّن مسلماً كما تبين من
الحديث السابق ، فلا يصح أمان غير المسلم ، فإذا كان الأمان من الذمي لا يصح : فمن باب أولى
ألا يصح أمان الرسول الذي يدخل دار الإسلام لمهمة خاصة ثم يعود إلى بلده ،
ولأن الأمان إنما أعطي له من أجل تيسير مهمته ، ولأن الأمان ولاية ولا ولاية

للكافر على المسلمين .

رابعاً : الحصانة المالية للممثل الدبلوماسي وموقف الشريعة من ذلك :

الحصانة المالية أساسها في القانون الدولي المعاملة بالمثل ، أما في الإسلام
فإن الفقهاء قرروا إعفاء المستأمن الرسول من العشور التي كانت معروفة عندهم ؛
قال أبو يوسف (رحمه الله تعالى) : ولا يؤخذ من الرسول الذي بعث به ملك الروم
ولا من الذي أعطي أماناً العشر إلا ما كان معهما من متاع التجارة ، فأما غير ذلك
فلا عشر عليهم فيه [21] .

فالمقصود بالإعفاء من العشور هو ما يشبه الإعفاء من الضرائب [22]
بالنسبة لهؤلاء الرسل ، وهذا موجود في كلام فقهائنا (رحمهم الله تعالى) :

قال الشافعية : ولا يؤخذ شيء من حربي دخل دارنا رسولاً .

وقال الحنفية : إنه لا يؤخذ من الرسول الذي بعث به ملك الكفار عشر .

وقال كثير من الفقهاء : وإذا كانوا لم يأخذوا من تجار المسلمين ولا من رسلهم
شيئاً لم يأخذ المسلمين شيئاً منهم أيضاً .

وإذا اشتُرِطَ ذلك للرسل فينبغي للمسلمين أن يوفوا لهم بشرطهم [23] .

وقبل أن ننتهي من موضوع التمثيل الدبلوماسي يتبادر إلى الذهن سؤال مهم هو :

ما حكم التمثيل الدبلوماسي الدائم في وقتنا الحاضر ؟

نستطيع أن نقول أنه بناءً على ما قرره الفقهاء من وجوب تأمين الرسل أو
السفراء القادمين إلى الدولة الإسلامية فإنه لا مانع من إقامة علاقة سياسية دائمة بين
الدولة الإسلامية وغيرها ، فمثلاً نجد ابن قدامة (رحمه الله) قد بيّن أنه : يجوز
إعطاء الرسول أو السفير الأمان وحق الإقامة دون تحديد ذلك بمدة معينة ، فقال :
ويجوز عقد الأمان لكل منهما (الرسول والمستأمن) مطلقاً ومقيداً بمدة سواء كانت
طويلة أو قصيرة [24] .

فابن قدامة يرى جواز إقامة السفير أو الرسول في الدولة الإسلامية بصفة

دائمة أو لمدة محدودة بزمن طويل أو قصير ، وهو ما يشبه الآن ما يسمى بالتمثيل
الدبلوماسي الدائم .

إلا أنه من الخير أن يفطن المسلمون اليوم لكثير من التسهيلات والامتيازات
التي تمنح للأجانب ، فإنه من المُسلّم به أن أمن الدولة هو مجموع مصالحها الحيوية
والواجب على ولي أمر المسلمين أن يهتم بهذه المصالح ، سواء أكانت سياسية أو
اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية أو معنوية أو أدبية ، كما يعمل على مقاومة كل من
يعمل أو يحاول الحصول على المعلومات من الدولة الإسلامية عن تلك الأشياء ، أو
القيام بمحاولات تهدد الأمة الإسلامية في كيانها أو أهدافها الحيوية أو التأثير على
معنويات شعوبها أو التشكيك في مبادئها وقيمها ، خاصة بعض الدبلوماسيين الذين
يستغلون حصانتهم الدبلوماسية في تحقيق بعض الأغراض التي تمس أمن وسلامة
الدولة الإسلامية .

هذا وإن كان بعض فقهائنا (رحمهم الله تعالى) أجازوا عقد الأمان للرسول أو
السفير بصفة مطلقة وبدون تحديد مدة معينة ، إلا أن ذلك مربوط بشرط مهم وهو :
أن عقد مثل هذه العلاقات الدبلوماسية الدائمة تخضع لتقدير ولاة الأمر وأهل الحل
والعقد ، وأن يكون محققاً لمصلحة الدولة الإسلامية .

ومعروف لدى القارئ الكريم القاعدة الفقهية المشهورة القائلة : إن تصرف
الإمام على الرعية منوط بالمصلحة وقد نص الشافعي (رحمه الله) على هذه القاعدة
بقوله : منزلة الإمام من الرعية منزلة الولي من اليتيم [25] .

الخاتمة :

وبعد هذا التطواف بين الحصانات الدبلوماسية في الفقه الإسلامي والقانون
الدولي ، نريد أن نوضح الأمور التالية :

أولاً : في العلاقات الخارجية (التمثيل الدبلوماسي) : يهتم النظام الإسلامي
بالغايات الشرعية لهذه العلاقات ، بينما نجد النظام الوضعي يهتم بتحقيق مصالح
بشرية متقلبة ، وكما قال أحدهم : ليست هناك صداقات دائمة وإنما هناك مصالح

دائمة ولذلك تتأثر هذه العلاقات في الأنظمة الوضعية بتحقيق مصالحها فقط .
ثانياً : إن صياغة أهداف العلاقات الخارجية ، يجب أن تتم في ضوء المنهج
الإسلامي ، الذي حددته الأحكام الشرعية ؛ فلا ينبغي لأي دولة إسلامية أن تضع
برامجها وأهدافها في غياب هذه العلاقات ، بحيث تصبح كالأهداف التي تضعها أي
دولة أخرى ، فالله قد أكرمنا بالإسلام وجعله منهجاً لنا ، فمهما ابتغينا العزة بغيره
أذلنا الله .
ثالثاً : يجب إظهار التميز الإسلامي في علاقتنا مع غيرنا ؛ لأن تميزنا هو
الذي يميزنا عن بقية الدول الأخرى ، وإذا لم نتميز بما لدينا من عقيدة إسلامية
أصبحنا والدول الأخرى سواء .
أخيراً : إن المصالح المشتركة لا تبرر التنازل عن حكم من أحكام الإسلام
الواضحة ، إذ إن هذه المصالح يجب أن تخضع لحكم الإسلام ، ولذلك لا
يقول قائل : إن المصالح تجعل المسلمين يتنازلون عن مبادئهم ، فالمبادئ أسمى وأعلى من كل
مصلحة ، ومصلحة الدين فوق كل مصلحة [26] .

---

(1) راجع : أهمية الجهاد في نشر الدعوة الإسلامية والرد على الطوائف الضالة فيه ، ص (454-459) .
(2) سلطات الأمن والحصانات والامتيازات الدبلوماسية ، د فاوي الملاح ، ص 219 .
(3) العلاقات الدولية في الإسلام ، كامل سلامة الدقس ، ص139 .
(4) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ج8 ص75 .
(5) المبسوط ، للسرخسي ، ص92 ، 93 .
(6) الخراج لأبي يوسف ، ص203 .
(7) مسند أحمد : ج1 ، ص404 .
(8) المغني لابن قدامة ، ج8 ص400 .
(9) آثار الحرب ، وهبة الزحيلي ، ص337 .
(10) المرجع السابق ، ص338 .
(11) العلاقات الدولية في الإسلام ، أبو زهرة ، ص72 ، 73 .
(12) جزء من حديث أخرجه : البخاري في البيوع ، باب البيع والشراء مع النساء ج3 ص27 ، وفي الشروط ، ج3 ص177 .
(13) أخرجه : أبو داود في الأقضية ، باب في الصلح ، ج4 ص1920 ، والترمذي في الأحكام ، باب (17) ج3 ص634 ، 635 .
(14) انظر : العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية ، رسالة دكتوراة مخطوطة ، مقدمة من سعيد المهيري ، ص726 ، 727 .
(15) زاد المعاد لابن القيم ، ج3 ، ص638 .
(16) راجع : سلطات الأمن والحصانات والامتيازات الدبلوماسية ، ص698 .
(17) أخرجه : البخاري في الفرائض ، باب إثم من تبرأ من مواليه ، ج8 ص10 وفي الجزية والموادعة ، ج4 ص67 ومسلم في الحج ، م1 ص994 .
(18) المغني ، لابن قدامة ، ج8 ص398 .
(19) فتح الباري ، ج6 ص316 .

(20) المصدر السابق .
(21) الخراج لأبي يوسف ، ص 2045 .
(22) وهذا أصل كان يفعله ملوك العرب والعجم جميعاً ، فكانت سنتهم أن يأخذوا عشر أموال التجار إذا مروا بها عليهم ، ومنهم الرسل فأبطل الله ذلك برسوله -صلى الله عليه وسلم- وجاءت فريضة الزكاة بربع العشر ، فالضرائب بجميع أنواعها غير جائزة في الشريعة الإسلامية إلا في حدود ضيقة جدّاً جدّاً ليس هذا مجال تفصيلها .
(23) انظر : أحكم أهل الذمة ، ج1 ص166 وما بعدها والمغني ، ج8 ص518 ومغني المحتاج ، ج4 ص247 .
(24) المغني لابن قدامة ، ج8 ص400 .
(25) انظر : الأشباه والنظائر للسيوطي ، ص121 .
(26) للاستفادة راجع : العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية .

المسلمون والعالم

جهود الرافضة في السنغال
بين النجاح والفشل

بقلم : عبد المهيمن كريم

كاتب هذه المقالة داعية سنغالي ، كانت له صلة قريبة بنشاط الشيعة في السنغال ، سافر للدراسة في إيران ، واطلع على أحوالهم عن قرب .. ثم كانت هذه المقالة للتعريف بنشاط الشيعة في السنغال .

- البيان -

السنغال دولة تقع في غرب إفريقيا مساحتها 400 . 201 كم2 ، تحدها موريتانيا شمالاً ، وغينيا بيساو وغينيا كوناكري غرباً ، وساحل العاج ومالي شرقاً وجنوباً ، ويبلغ عدد سكانها سبعة ملايين نسمة ، يشكل المسلمون نسبة 95 % منهم .

ويمكن إرجاع دخول الرافضة في السنغال إلى ما بعد قيام الثورة الإيرانية ؛ لأن اللبنانيين الذين يعتنقون المذهب الشيعي مكثوا في البلاد أكثر من أربعين سنة دون أن يعرف السنغاليون مذهبهم الشيعي فضلاً عن الدخول فيه . أما بعد الثورة الإيرانية التي حملت شعار تصدير الثورة إلى العالم كما هو معروف بعد ذلك سمعنا ولأول مرة في تاريخ السنغال الكلام عن الشيعة والتشيع ! !

كيف دخل الرافضة في السنغال ؟

تزامن قيام الثورة الإيرانية مع تنامي الصحوة الإسلامية في السنغال ودخول الصحوة في جامعة دكار ، وأوساط التلاميذ في الثانويات والمعاهد العربية والفرنسية ،

، وبدأت الصحف والمطبوعات الإيرانية الشيعية تدخل البلاد ، وترفع شعار الوحدة الإسلامية بعناوين كبيرة على أغلفة المطبوعات والصفحات الأولى منها ، وفي داخلها تعالج موضوعات الثورة ، وتركز على أن سر نجاحها كامن في العامل العقائدي المتمثل في نظرية الإمامية الاثني عشرية ، لذلك كان أول من تشيّع هم بعض المثقفين من الطلبة السنغاليين من ضعيفي الثقافة الإسلامية الصحيحة .

دور السفارة الإيرانية في العمل الدعوي :

يرجع دخول التشيع وانتشاره إلى جهود السفارة الإيرانية ، فهي التي كانت ولاتزال تتولى مهمة نشر الصحف والكتب واختيار العناصر المؤيدة لإيران لتقديم الدعوات إليها لزيارتها في أعياد الثورة ! ، ولما تشيعت مجموعة من الناس بواسطة هذه الدعايات ، لعبت السفارة دوراً كبيراً في دعمهم ماديّاً وتقديم المعلومات لهم من الكتب والصحف ، بل ذهب بعض الناس إلى أنهم كانوا يجتمعون في أول الأمر داخل السفارة ، ويتلقون فيها الدروس التكوينية حتى أسسوا أخيراً حركة باسم حلقة المثقفين .

دور اللبنانيين حجمهم ، نشاطهم الاقتصادي ، جمعياتهم :

المصادر التي تتكلم عن تاريخ الهجرة اللبنانية تقول : إن هجرتهم إلى إفريقيا تزامنت مع مجيء الاستعمار [1] ، ولكن اللبنانيين بحكم طبيعتهم وغرابة توجهاتهم الشيعية ، اعتزلوا المجتمع السنغالي ثقافيّاً ، وبقوا يمارسون شعائرهم التعبدية في معابدهم الخاصة ، إلى أن ظهر الإمام موسى الصدر بجولاته الإفريقية المشهورة في سنة 1964م وما بعدها ، حاملاً مشروع المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان .

وذهب موسى الصدر إلى كل بلد إفريقي فيه وجود لبناني ، فجمع الجالية اللبنانية ونصب لهم إماماً ومرشداً دينيّاً براتب يتحمله المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى ، فنصب للجالية اللبنانية في السنغال عبدالمنعم الزين ، وبنى له بعض

اللبنانيين مركزاً فخماً في دكار قرب وزارة المالية سَمّوه (المركز الاجتماعي
الإسلامي) ، وتمت البناية سنة 1401 هـ في الحادي عشر من شهر رجب الموافق
14/5/1981 م .

والبناية تحتوي على أربعة طوابق :

- الطابق الأرضي نادي الرسول .
- الطابق الأول مسجد الإمام علي المستوصف الإسلامي .
- الطابق الثاني جمعية الهدى الخيرية .
- الطابق الثالث الإدارة العامة .

ويعالج المرضى في المستوصف بأجور زهيدة ، وتوجد في المركز مدرسة
تسمى مدرسة الزهراء ، حيث يقوم فيها شيخهم عبدالمنعم بتدريس بعض الأفارقة ،
وإذا وثق بهم يرسلهم إلى لبنان أو إيران ليواصلوا دراستهم ، وقد وجدت خلال
وجودي في إيران خمسة سنغاليين مرسلين عن طريقه .

كما أنشأ اللبنانيون تحت إشراف عبدالمنعم الزين مسجداً كبيراً في محطة
السيارات أسموه مسجد الدرويش ، ونصب له أماماً سنغاليّاً اسمه ، كان قد تخرج
على يدي عبدالمنعم ، وهو يصلي بالناس الجمعة والجماعة تقية ، وذلك بالصلاة
كأهل السنة مع إدخال بعض الشعائر الشيعية دون أن يعرفها المأمومون الذين لا
يعرفون من الدين شيئاً !

ولقد كُلّف الإمام من قبل عبدالمنعم بتدريس السنغاليين الذين اعتنقوا المذهب
الرافضي ، ومن أنشطة عبدالمنعم أنه موّل رجلاً في (كيجواي) ، ففتح مدرسة
ابتدائية عربية يدرس فيها الأطفال السنغاليين ، ويبث فيهم سموم الشيعة خُفْيَةً ، كما
مول رجلاً آخر ، ففتح مدرسة في كرمدارو وهي قرية تقع على بعد خمسة عشر
كيلومتراً عن تياس والمدرسة سميت دار القرآن .

واللبنانيون كانوا يسيطرون على الحياة الاقتصادية في البلاد ، وبخاصة
التجارية منها ، إلا أن دورهم تقلص بسبب التدهور الاقتصادي الذي تعاني منه
البلاد ودخول السنغاليين في الحقل التجاري بشكل كبير ، فنزح كثير من اللبنانيين

إلى ساحل العاج أو إلى أوروبا .
وليس للبنانيين جمعيات مختلفة ذات طابع ديني ، وإنما التفافهم حول
عبدالمنعم الزين ، أما بعض ليبراليهم فقد توزعوا في النوادي الماسونية والرياضية
والمؤسسات الاجتماعية الأخرى .

مجالات عمل الرافضة في السنغال :

الروافض السنغاليون لقلة عددهم ليس لهم إلا مدرسة واحدة قائمة فعلاً ، وهي
مشروع مدرسة عربية فرنسية تحتوي على روضة أطفال ، ومركز اجتماعي صحي
يشرف عليه إمام جامعة دكار سابقاً ، والمدرسة فتحت منذ أكثر من سنة ، ولا يعمل
فيها حالياً إلا فصل واحد لعدم تحمس السنغاليين ولشكهم في أمثال هذه المدراس أولاً ، أو ربما لحداثتها ثانياً .
ويبدو
أن لهم مشاريع لإنشاء الكليات والمعاهد والمكتبات والأنشطة الاجتماعية ، لكنهم لم يقوموا بأي شيء منها بعد .
أما الصحف والمجلات فيعتمد الروافض السنغاليون على مطبوعات إيران
التي ينشر منها كيهان العربي وهي يومية في إيران أسبوعية خارجها ، وكذلك
الوحدة الإسلامية وهي عربية شهرية ، صوت الثورة الإسلامية في العراق أسبوعية ، بالإضافة إلى الرسالة وهي أسبوعية ناطقة بالفرنسية وتصدر شهريّاً ، وتؤخذ كل
هذه المطبوعات من السفارة الإيرانية كما يأخذون منها كتباً مثل :
1- (ثم اهتديت) و (لأكون مع الصادقين) و (فاسألوا أهل الذكر) لالتيجاني
السماوي الصوفي المتشيع [2] .
2- بحث حول الولاية ، بحث حول المهدي ، في التاريخ ، لمحمد باقر
الصدر ، عقائد الإمامية ، السقيفة ، لـ محمد رضا المظفر .
3- الحكومة الإسلامية ، كشف الأسرار ، لالخميني .
4- المراجعات ، النص والاجتهاد ، أجوبة مسائل جار الله ، للمدعو عبد
الحسين ! شرف الدين .
5- معالم المدرستين ، خمسمئة صحابي مختلف ، لمرتضى العسكري ،
والكتب مترجمة إلى الفرنسية والإنكليزية .
6- الجمعيات : لا أعرف للرافضة السنغاليين إلا جمعية واحدة في هذا الوقت

بالذات [3] ، وهي باسم حلقة المثقفين ولها طابع سري لذلك من الصعب أن يعرف
الناس عنها الكثير وبخاصة من هم مثلي لكوني معروفاً لديهم .

زياراتهم إلى مكة المكرمة و إيران :

أما زياراتهم لإيران فهي كثيرة ؛ لأنني خلال وجودي في إيران كنت ألتقي
كل سنة مع وفد من السنغال في المناسبات : منهم مؤسس جماعة العمل الإسلامي ..
وغيره [4] .

تقويم نشاطات الرافضة في الساحة السنغالية :

في البداية كان النشاط الرافضي مؤثراً تأثيراً سلبيّاً على العمل الإسلامي لما
للرافضة السنغاليين من معرفة بأحوال أهل السنة لأنهم تربوا في محيطهم ، إضافة
إلى مطالعاتهم الكثيرة في المذهب الرافضي ، ولأن المسألة كانت جديدة على
السنغاليين ، لذا : حدث اضطراب عقائدي في أوساط شباب الحركة الإسلامية ،
والذين تشيعوا كانوا ضحايا ذلك الاضطراب ، ولكن لم يمكث الاضطراب مدة
طويلة ، فقد بدأ الشباب يرجعون عن أفكار الرافضة بسبب الجهود التي بذلها العلماء
الأفاضل من أهل السنة ، الذين قاموا بإلقاء محاضرات وبحوث توضح حقيقة عقائد
أولئك وخطرهم على الأمة .

مدى تعاون الطرق الصوفية مع الرافضة :

زعماء الطرق الصوفية ليس لهم وعي عقائدي ؛ لذلك لا يعرفون مدى الخطر
الذي يمثله الرافضة ، فضلاً عن اشتراكهم مع الرافضة في بدع كثيرة ، وتكسب
إيران ودهم بتقديم دعوات لمشايخهم لزيارة إيران ، إلا أن خوف الشيوخ من
الصحوة الإسلامية التي تُتهم إيران بزعامتها حال دون ذلك ، فمثلاً : الشيخ مرتضى
إمباكي نائب الخليفة العام للطائفة المريدية قُدمت إليه دعوات مرات ولكنه كان
يرسل في كل مرة : إما مرتضى إمباكي مدير الأزهر في (تياس) سابقاً أو مصطفى
جترا مفتش الأزهر في (طوبي) .

هل تشيع أحد من أهل السنة ، وما السبب ؟

تشيع بعض الشباب بسبب الدعايات التي قامت بها إيران في إفريقيا بواسطة

الصحف والمجلات والكتب التي وزعت من قبل سفارتها ، والزيارات التي قام بها
الشباب إلى إيران وعددهم لا يبلغ عشرين حسب معرفتي ، ومعظمهم يتركزون في
العاصمة دكار ، ويعملون على نشر التشيع .

العلاقة السياسية بين إيران والسنغال :

كانت العلاقة بين إيران والسنغال متوترة في البداية لظن الحكومة السنغالية أن
إيران تدعم الحركة الإسلامية ، فأغلقت سفارتها واستدعت سفيرها من طهران ،
ولما عرفت أن إيران لا تريد دعم الحركة ، وإنما تريد دعم التشيع وهو يضعف
الحركة ، تصالحت الحكومة السنغالية مع إيران ، ففتحت إيران سفارتها من جديد ،
وفتحت الحكومة سفارتها في إيران ، وجعلت مستشار السفير هناك أحد أبناء
السنغال الذي كنا نترقب له دوراً كبيراً في مستقبل الحركة الإسلامية .

فالعلاقة بين الحكومتين الآن جيدة ، وأعتقد أنها ستستمر مادامت الحكومة
السنغالية تؤمن أن إيران تضعف الحركة الإسلامية الرئيسة في السنغال ، وذلك
بمحاولة إحداث الانشقاق داخل صف الحركة الإسلامية السنية ، وكسب بعض
عناصرها المتشددة إلى التشيع أو تأييد سياساتها .

المستقبل المتوقع لنشاط الرافضة في السنغال :

لا أرى للرافضة مستقبلاً في السنغال -على الرغم من الجهود الكبيرة التي
يقومون بها - ، وذلك لسببين :

الأول : زيادة كشف وجه إيران في العالم الإسلامي شيئاً فشيئاً وخيبة أمل
كثيرين من مؤيديها .

الثاني : بروز نجم الحركة الإسلامية السنية في العالم كقوة رئيسة يخشاها
الغرب ، وانتشار وسائلها في الساحة السنغالية من صحف ومجلات وكتب ونشرات
ومراكز صحية واجتماعية ، وسلامة عقيدتها مع قوة أدلتها ورصانة حجتها .

وختاماً :

فإن قضية الشيعة في السنغال بخاصة وفي إفريقيا بعامة مقلقة ، وتتطلب يقظة

وانتباهاً ؛ لأن عامة الشعب السنغالي لا يعرفون عنهم شيئاً رغم الجهود التي بذلوها ، وعلى العلماء والدعاة مسؤولية كبيرة في بيان الحق ونشر السنة ، وتنشيط الدعوة
إلى الكتاب والسنة على منهاج أهل السنة والجماعة .

---

(1) يُقدر عدد اللبنانيين في السنغال بحوالي خمسة عشر ألفاً ، معظمهم من الشيعة ثم الدروز ، وفيهم نسبة قليلة من النصارى ، ويعمل معظمهم في التجارة ، وهم قوة اقتصادية كبيرة في البلد ، حيث يملك اللبنانيون حوالي ثمان وأربعين شركة من كبرى الشركات في السنغال ، بالإضافة إلى عدد غير قليل من المصانع والفنادق والمحلات التجارية ، ولكن بدأ نفوذهم يقل في الآونة الأخيرة ، ولعل من أبرز التجار السابقين نبيه بري رئيس حزب أمل اللبناني ورئيس مجلس النواب الحالي في لبنان !
- البيان - .

(2) هذا الرجل المشبوه الذي تحول من صوفي قبوري إلى رافضي محترف من أعجب المدلسين والمزورين للحقائق ، ومن أعجب ما ألفه أهل السنة والجماعة هم الشيعة انظر لمعرفة حقيقته وتسليط بعض الأضواء عليه : كتاب (الشيعة والسنة) للأستاذ/ سعيد الجنيد - البيان - .

(3) في عام 1985م أسست (منظمة العمل الإسلامي) في العاصمة داكار ، وهي ذات توجه شيعي ظاهر ، وتتلقى الدعم من السفارة الإيرانية مباشرة ، وقد قام مؤسسها بزيارات متكررة إلى إيران ، ولكن هذه المنظمة لم تحظَ بقبول لدى عامة الدعاة والمثقفين ، والجدير بالذكر أن المنظمة كانت تصدر مجلة للدراسات الإسلامية باللغة الفرنسية - البيان - .

(4) ذكر الكاتب بعض الأسماء التي ترددت إلى إيران ، رأينا عدم إثباتها ، اعتماداً على قول النبي -صلى الله عليه وسلم- : ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا - البيان - .

المسلمون والعالم

المسلمون في الفلبين وصراع الهوية

بقلم : محمد بن عبد الله

تعيش الأقلية المسلمة في الفلبين في ظل ظروف غاية في الشدة والصعوبة نتيجة للظلم الفاحش والتمييز العنصري الديني الواقع عليها من قِبَل حكومة البلاد الصليبية ، التي تعمل ليلاً ونهاراً على طمس هويتها الإسلامية وتذويبها في المجتمع النصراني المحيط بها ، ومن جهتهم : يسعى المسلمون جاهدين لمقاومة مؤامرات الاحتواء ، والتصدي لخطط أعدائهم ، والدفاع عن دينهم وهويتهم وثقافتهم المستهدفة ، مما أدخلهم في صراع طويل ومرير مع تلك الحكومة ، الأمر الذي ترك آثاراً واضحة على ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

ومن خلال هذا المقال : سنحاول إلقاء الضوء على خلفيات وأبعاد هذا

الصراع ، واستشراف مستقبل المسلمين في الفلبين في هذه البقعة من عالمنا
الإسلامي .

الخلفية التاريخية للمسلمين في الفلبين :

من المعروف تاريخيّاً أن المسلمين في الفلبين هم أصحاب البلاد الأصليين ،
حيث إن جزر الفلبين كانت قبل أربعة قرون مضت : عبارة عن مجموعة من
الولايات الإسلامية تُحْكَمُ بالإسلام الذي دخلها في نهاية القرن الثامن الهجري على يد
التجار والدعاة العرب ، ولم يكن هناك في ذلك الوقت أي أثر للديانة النصرانية أو
معتنقيها ، وبقيت كذلك حتى غزاها الأسبان عام 1521م ، بهدف القضاء على
الإسلام الذي كان قد فرض سلطانه على تلك المنطقة من العالم ، وتحويل أبنائه عن
دينهم ، وامتصاص خيراتهم ، وكان هذا استكمالاً للدور الذي لعبه الأسبان في تلك
العصور في محاربة الإسلام واضطهاد المسلمين (كما حدث في الأندلس) ، إلا أنهم
في الفلبين لم ينجحوا في تحقيق النتيجة نفسها التي وصلوا إليها في الأندلس ؛ نظراً
للمقاومة العنيفة والشرسة التي واجهوها من مسلمي هذه البلاد ، بَيْد أنهم تمكنوا من
إخضاع شمال ووسط البلاد (جزيرتي لوزون وبيسايس) لسيطرتهم ، وفشلوا على
مدى (377) سنة (هي مدة الاحتلال الأسباني للفلبين) في السيطرة على جنوب
البلاد (جزيرة مينداناو) ، وذلك لتأصل الإسلام في تلك المنطقة منذ زمن بعيد
واستماتة أهلها في الدفاع عنها ، وبعد أن احتل الأسبان (جزيرة لوزون) وبها
العاصمة (مانيلا) سارعوا بإرسال حاكم نصراني لها ، وتوافدت البعثات التنصيرية
ورجال الدين النصراني على الفلبين لنشر ديانتهم بها ، فدخلت في النصرانية أعداد
كبيرة خاصة من الوثنيين الذين كانوا يسكنون هذه المناطق خوفاً من بطش الأسبان
الذين أعملوا القتل والتعذيب في كل من خالف ديانتهم أو لم يستجب لدعوتهم .

بعد رحيل الأسبان احتل الأمريكان جزر الفلبين عام 1899 م فساروا على

نهج أسلافهم في صبغ البلاد بالصبغة النصرانية ومواصلة قتال المسلمين
واضطهادهم للحيولة بينهم وبين دينهم ، إلا أنهم واجهوا الفشل نفسه الذي واجهه
الأسبان من قبلهم في القضاء على الإسلام ، الذي كان قد آوى إلى جزيرة (ميندناو)
وتترس بها ، ومضت حقبة الاحتلال الأمريكي ، وقررت أمريكا الانسحاب من
جزر الفلبين ومنح الاستقلال لحكومة وطنية من النصارى الكاثوليك ، وكان ذلك في
عام 1946م ، فقرر قادة وزعماء المسلمين عدم الانضمام لتلك الدولة الوليدة ،
وأعلنوا أن بلادهم ليست جزءاً من دولة الفلبين الكاثوليكية وطالبوا باستقلال ما تبقى
من بلادهم ، إلا أنه غُض الطرف عن رغبتهم ، ولم يُسمع لصوتهم ، وساعدت
أمريكا حكومة الاستقلال على ضم بلاد المسلمين إليها عنوة ، واعترفت بحدود
الفلبين متضمنة مناطق المسلمين الجنوبية ، ووجد المسلمون أنفسهم بين عشية
وضحاها جزءاً مما يعرف اليوم بجمهورية الفلبين .

واقع المسلمين الحالي :

الواقع أن جميع الحكومات التي تعاقبت على حكم الفلبين منذ الاستقلال وحتى
الحكومة الحالية لم تتبدل نظرتها للمسلمين ، فهي النظرة الاستعمارية القديمة نفسها ،
ولا عجب في ذلك ؛ فتلك الحكومات ما هي إلا صنيعة الاستعمار ووريثته .
وعلى الرغم من أنه يطيب للحكومة الفلبينية أن تردد دوماً أن بلاد المسلمين
جزء لا يتجزأ من دولتها ، إلا أنها لا تتعامل بالنظرة نفسها مع سكانها المسلمين
الذين تعتبرهم مواطنين من الدرجة الثالثة ، ليس لهم أي حقوق وعليهم كل
الواجبات ، ولا تهتم بمناطقهم وأحيائهم السكنية ومدها بأسباب الحياة من مرافق
وخدمات ومشروعات تنموية كالتي توفرها للمناطق النصرانية ، وعلى الرغم من
أن المسلمين في الفلبين يشكلون نسبة (10%) من مجموع السكان إلا أن الزائر
للفلبين لا يكاد يشعر بأي تواجد للمسلمين في هذه الدولة ، فهم محرومون بشكل عام

من تولي أية مناصب عليا في الحكومة أو الجيش أو الشرطة ، وقد أوصدت في
وجوههم أبواب التوظف سواء في القطاع الحكومي أو القطاع الخاص الذي يُسيطر
عليه النصارى ، وحتى التجارة لا يتمكنون من ممارستها بحرية تامة لتضييق
الحكومة الخناق عليهم في هذا المجال ، كل ذلك ضمن خطة مدروسة لتجويع
المسلمين وإضعافهم حتى لا تقوم لهم قائمة أو تقوى لهم شوكة فيفرضوا أنفسهم على
المجتمع النصراني المتعصب المحيط بهم ، كما أنهم محرومون تماماً من حرية
التعبير ، وليست لهم وسائل إعلام تتحدث باسمهم وتبحث قضاياهم ، هذا بعد أن
عمدت الدولة إلى تحريف وتزوير تاريخ البلاد الحقيقي ، وأهالت التراب على
بطولات القادة المسلمين التاريخيين ؛ في محاولة لغمط أي حق يمكن أن يطالب به
المسلمون في بلادهم المغتصبة ، كما سخّرت الحكومة وسائل إعلامها لتشويه
الإسلام والنيل من المسلمين بشكل قد لا يجده المرء في كثير من الدول الأخرى التي
تعيش بها أقليات مسلمة ، ولم تتوقف المؤامرة عند هذا الحد ، بل اعتمدت الحكومة
النصرانية خطة لتذويب المسلمين ومحوهم من الوجود .

وقد تركزت هذه الخطة على محورين رئيسين ، وهما :

1- توطين النصارى في بلاد المسلمين : ويعتمد هذا المحور على تهجير
السكان النصارى من شمال ووسط البلاد وحشدهم في جزيرة (ميندناو) بين
المسلمين ، بعد الاستيلاء على أراضيهم وتسكين أولئك المستوطنين فيها ، وتهدف
الحكومة من وراء اتباع هذه السياسة إلى تحقيق الأهداف التالية :

أ- رفع الكثافة السكانية للنصارى في المناطق التي يُشكل المسلمون فيها
أغلبية ، حتى يصبحوا مع الوقت أقلية لا قيمة لها ، وتزول معالمهم وآثارهم من
هذه المناطق .

ب- اختراق المجتمع المسلم ونشر الفساد فيه ، حيث إن السواد الأعظم من
أولئك المستوطنين من العناصر الإرهابية ومرتكبي الجرائم التي تشكل خطراً على

المجتمع النصراني نفسه ، وبالفعل فإن هؤلاء المستوطنين لا يتوانون عن إشاعة
الإرهاب في مناطق المسلمين وإعمال القتل والاغتصاب والسرقات وتحريق بيوت
المسلمين وقراهم ، بهدف إجبارهم على مغادرتها وهجر أراضيهم ومزارعهم -التي
ورثوها عن أجدادهم - وتركها لأولئك المعتدين ، وقامت الدولة بتسليح وحماية
هؤلاء المستوطنين بجيشها وميلشياتها ، وتقدم لهم جميع التسهيلات اللازمة ، وتقوم
بتسجيل الأراضي التي استولوا عليها بأسمائهم .

ج- قطع الترابط والتلاحم بين قرى المسلمين وتجمعاتهم ؛ حيث تقوم الحكومة
بتوطين هؤلاء في مستوطنات تختار أماكنها بدقة بحيث تقع في نقاط اتصال هذه
التجمعات بعضها ببعض .

2- العمل على تنصير المسلمين : تلك السياسة التي لم تتخل عنها يوماً أيّ
من الحكومات التي حكمت الفلبين امتداداً لخطة المستعمر القديم ، ولتوضيح أبعاد
هذه السياسة يجدر هنا أن نورد ما صرح به القس الفلبيني السابق الذي اعتنق
الإسلام وكان يعمل في مجال التنصير في (ميناداناو) و (نجيب رسول) حيث قال
حول هذه القضية : إن الخطوة التي وضعتها الحكومة الفلبينية ، ويشرف عليها
الفاتيكان ، وتدعمها كل من الكنيسة الإنجليزية والأمريكية ، تقضي بتحويل
(ميناداناو) إلى منطقة نصرانية أو ذات أغلبية نصرانية بحلول عام 2000م ، لذا :
فإن البعثات التنصيرية تعمل في سباق مع الزمن ، ووضعت تلك الجهات المذكورة
بين يديها أموالاً طائلة لتحقيق أهدافها في الزمن المحدد له .. [*] وهذا ما يُفسر
النشاط المحموم لتلك البعثات ، والحضور البارز للعنصريين والقساوسة والراهبات
الموفدين من الدول الكاثوليكية المختلفة في مناطق المسلمين في (ميناداناو) ،
والانتشار الواسع لمشروعاتهم المتعددة في تلك المناطق حتى القرى
النائية منها من : مدارس ، ودور أيتام ، وخدمات طبية .. وغير ذلك ، في محاولة للتأثير على

المسلمين وجذبهم بهذه الطرق ، هذا بالإضافة للعديد من البرامج الموجهة بالراديو ،
التي تغطي مناطق المسلمين الجنوبية بشكل كامل ، وتوزيع النشرات والمطبوعات
المترجمة باللغة المحلية ، ولقد أثبت الواقع أن المؤامرات التي تحاك ضد مسلمي
الفلبين ، وتستهدف دينهم وهويتهم ، لم تنجح في زعزعة الإسلام في نفوسهم بعكس
ما حدث في دول أخرى بل يمكن القول : بأنها قد زادتهم حرصاً على دينهم وتمسكاً
بثقافتهم الإسلامية ، ويلاحظ المراقبون أن وجه المجتمع المسلم في الفلبين قد تغير
إلى الأفضل ، بشكل كبير عن ذي قبل ، وبدت آثار الصحوة الإسلامية التي عمّت
العالم الإسلامي وامتدت لتطول المجتمع المسلم الفلبيني ، وقد لعب العلماء والدعاة
دوراً كبيراً في نشر الوعي الإسلامي بين المسلمين ، وهو الأمر الذي أزعج
الحكومة بشكل كبير ، فبدأت بوصف أولئك الدعاة بالتطرف والإرهاب وتبني أفكار
الجماعات الإسلامية المنتشرة في منطقة (الشرق الأوسط) ! ! .

هذا ، وكلما يأست الحكومة الفلبينية من تحقيق أهدافها ، وعجزت عن تطبيق
برامجها ، واصطدمت بصلابة المسلمين في الذود عن دينهم : لجأت إلى أسلوب
الترهيب ، وشن الحروب الغاشمة عليهم ، وإعمال القتل والتشريد والتدمير بين
صفوفهم ، وعملت على إيقاع الفتن بينهم لإشغالهم بأنفسهم والغفلة عن مواجهة
تآمرها .

وقد شهدت الفترة الأخيرة تصاعداً ملحوظاً على صعيد المواجهات بين
المسلمين وقوات الحكومة العسكرية التي فشلت في حسم المواجهة لصالحها والتمكن
من السيطرة الكاملة على المناطق التي ينتشر فيها المجاهدون المسلمون على الرغم
من الفرق الشاسع بين إمكانات واستعدادات الطرفين وهو الأمر الذي أثر على
هيبتها على الصعيدين الداخلي والخارجي ، فلجأت إلى أسلوب المكر والخداع ،
وأعلنت عن استعدادها للدخول في مفاوضات مع (الجبهة القومية العلمانية) ،

لتمنحها بموجبها حكماً إداريّاً في المناطق التي فشلت في إحكام السيطرة عليها ، التي
ينتشر بها المجاهدون المسلمون ، بهدف توكيل الجبهة العلمانية في المواجهة نيابة
عنها ، ولتوفر على نفسها الدماء والأموال التي تستنزف خلال المواجهات التي تقع
بين قواتها والمجاهدين .
وبالفعل عقد الطرفان بعض المباحثات ، إلا أنهما لم يتوصلا إلى اتفاق بعد ،
ولم تتضح النتيجة النهائية لهذه المفاوضات التي ترفضها أغلبية المسلمين ولا
يعلقون عليها أي آمال .

استشراف مستقبلي :

إن قضية مسلمي الفلبين تمر هذه الأيام بمرحلة من أدق مراحلها ، حيث تمثل
المرحلة الحالية مفترق الطرق بالنسبة لخط القضية ، لذا : يمكن اعتبار أن ما
ستسفر عنه الأيام القادمة سيساهم بشكل كبير في تحديد معالم مستقبل هذه القضية .
ومن خلال المعطيات المتوفرة إلى الآن ، يمكننا استشراف التالي :
أولاً : اتفاقية (الحكم الإداري) الذي قد يمنح للجبهة العلمانية لن تحل مشاكل
المسلمين ، ولن تحقق آمالهم في نيل حريتهم وتحكيم دينهم والعيش في أمان ، بل
الظاهر أن الدولة تستخدم العلمانيين في محاولة لتصفية المجاهدين أو رصد أنشطتهم
وتحركاتهم على الأقل وهو ما فشلت الحكومة في تحقيقه إلى الآن بكامل أجهزتها ،
وربما أدت هذه (الصفقة) إلى انقسام في الصف الإسلامي الذي قد ينخدع جانب منه
بالوعود الزائفة .
ثانياً : ستتميز الصفوف وتتبلور المواقف في المرحلة القادمة بشكل أكثر
وضوحاً ، وستلتف جموع الشعب المسلم حول الاتجاه الإسلامي إن شاء الله ، مما
سيمكن اعتباره استفتاءً حقيقيّاً صادقاً يعبر عن رغبة الشعب وطموحاته ، وهو الأمر
الذي ظهرت بوادره من الآن .
ثالثاً : إن لم تنجح التنظيمات الإسلامية المجاهدة في توحيد صفوفها والعمل

في إطار خطة واحدة مشتركة : فلن تتمكن من تحقيق أهدافها التي تسعى إليها كاملة ، ولن توفق في سد الثغرات التي ينفذ منها أعداؤها إلى الصف الإسلامي ..

رابعاً : ضرورة توعية الشعب المسلم بحجم وطبيعة المؤامرات التي تستهدفه ، وتحذيره من الانخداع بالدعاوى الزائفة التي يروج لها أعداؤه على اختلاف مشاربهم ، وهذه المهمة تقع على عاتق العلماء والدعاة الذين يجب عليهم مواصلة أداء دورهم بهمة عالية وإخلاص ووعي ، لأن المرحلة المقبلة تتطلب عملاً دؤوباً ومدروساً ومنظماً حتى لا يفلت زمام التوجيه من بين أيديهم ويستلمه العلمانيون والمنحرفون .

وإن المؤشرات والله أعلم لتوحي بأن مسلمي الفلبين الذين دافعوا جيلاً بعد جيل عن الإسلام في هذه البلاد على مدى سبعة قرون مضت ، وقدموا في سبيل ذلك التضحيات الجسام : لقادرون بعون الله على مواصلة مسيرتهم في الذود عن حياض الإسلام والدفاع عن هويتهم ، إلى أن يمكن الله (تعالى) لهم ، ويتحقق حلمهم في الاستقلال ببلادهم ، وما ذلك على الله بعزيز .

(*) جاء هذا التصريح في لقاء صحفي أجراه معه كاتب المقال ونشر بمجلة الجهاد ، العدد رقم (113) بتاريخ سبتمبر 1994م .

المسلمون والعالم

الأصولية الغربية

(2)

المنظمات الإنجيلية وصناعة السياسة الخارجية

بقلم : ياسر قارئ

تحدثت الحلقة الماضية عن نشأة ومضمون المذهب البروتستانتي الذي تدين به الغالبية الحاكمة في أمريكا ، وشرحت آثار ذلك على السياسة وصنّاعها ، ثم تطرقت إلى الحديث عن بدايات العمل السياسي النصراني المنظم ، وفي هذا الجزء من البحث سوف أعرض إلى أهم المنظمات الإنجيلية المعاصرة وأهدافها وعوامل انتشارها ودورها في صناعة السياسة الخارجية .

يقول إدوارد تيفنن في كتابه (اللوبي) : إن إسرائيل قبل أن توجد كدولة
وجدت كلوبي سياسي أولاً في عواصم أوروبا ثم واشنطن ، وهذا التعبير يشخص
حقيقة وجود الكيان الصهيوني وسر بقائه وهيمنته على المنطقة ، وكذلك يفسر
السياسة الأمريكية المنحازة فيما يتعلق بقضية المسلمين الأولى في فلسطين السليبة ،
ولئن كان دور اللوبي اليهودي في توجيه السياسة الخارجية حقيقة ماثلة للعيان ، فإن
هناك جهات أخرى أكبر أثراً لما تملكه من إمكانات روحية ومادية وأقل شهرة تعمل
لمصلحة إسرائيل (أرادت أم لم ترد) ليلاً ونهاراً ، متخفية تحت عناوين مضللة ،
وقد أصاب أوبرين عندما أشار إلى أن لجان العمل السياسي الثلاثة والثلاثين
المعروفة بتأييدها لإسرائيل لا تحمل في مسمياتها ما يشير إلى إسرائيل أو الشرق
الأوسط أو السياسة الخارجية ولو بصورة غير مباشرة منعاً لإثارة التلميحات إلى
المال اليهودي وشراء السياسيين [1] فيا ترى من يقف وراءها ؟ وما هي أهدافها ؟

إن البحث عن هوية تلك المنظمات يعيدنا إلى المذهب البروتستانتي والفرق
التي تشعبت عنه بسبب التزامها الحرفي بنصوص العهدين القديم والجديد للكتاب
المقدس ، والمؤمنة بالعصمة الحرفية لهما ، ولتشددها المفرط في مسائل العقيدة
والأخلاق ، واقتناعها بأن الكتاب المقدس يحوي توجيهات ونبوءات سياسية تشير
إلى استعادة إسرائيل وعودة المسيح (عليه السلام) إلى الأرض ثانية ، ولقد أطلق
على هذه الفرق مصطلح الأصولية [2]. وبالنظر إلى الكنيسة في أمريكا نجد أن
طائفة البروتستانت الأنجلوسكسن البيض التي تعود في جذورها إلى التطهيريين
الأصوليين تمثل الخط العام ، وإليها تنتسب النخبة الحاكمة والطبقة الأولى في
المجتمع ، وتضم كذلك : صلب التيار الصهيوني النصراني الأصولي [3]
ويشاركهم في هذا الشعور والحماس الديني بضعة ملايين من الكاثوليك ضاربين

بالموقف البابوي الرسمي من إسرائيل عرض الحائط !
ويستعمل زعماء تلك الكنائس سلطانهم الروحي في جمع الأموال وإقامة
الإمبراطوريات الإعلامية والتعليمية الضخمة من أجل الوصول إلى أكبر عدد ممكن
من الجمهور ، ولحشد الرأي العام العالمي وليس المحلي فقط لتأييد إسرائيل ،
بالإضافة إلى ذلك فقد استفادوا من قوانين تمويل الانتخابات المرنة جدّاً ، ليفرضوا
أنفسهم وعقائدهم على البرامج السياسية للمرشحين بالمال تارة ، وبإثارة الناخبين
عن طريق وسائل التأثير المختلفة كالرسائل والنشرات ، بل والتهديد بغضب الرب
تارة أخرى ، حتى غدى الأصوليون النصارى من أبرز المجموعات السياسية في
العقود الأخيرة وبالذات الثمانينات [4] ، بل إن الإحصاءات الرسمية لمركز البحث
للرأي العام في أمريكا لسنة 1988م تشير إلى أن 34% أي ثلث الشعب الأمريكي
ينتمي إلى مجموعات ذات صلة بالكنيسة وأنشطتها [5] .
وبترجمة هذه الدلائل إلى واقع ملموس : نجد أن سبعاً من أصل أكبر عشر
لجان عمل سياسي (لوبي) نشطة في جمع المال تعمل بدوافع عقائدية ، وسوف
يستمر هذا النمط حتى يدرك الشعب مكاسب تلك اللجان ، فإذا كانت هذه هي دوافع
اللجان السياسية والتي على رأسها الدعم المطلق لإسرائيل : فإننا نوقن أن العقيدة
المهيمنة على السياسة الأمريكية الخارجية فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية هي
الأصولية النصرانية ، ولمزيد من الإيضاح حول هذا التسلط الديني على النظام
الجمهوري العلماني فإن الإشارة إلى كيفية صناعة القرار داخل أروقة الكونجرس
ضرورة ملحة .
إن اللجان الفرعية التي تحال إليها الاقتراحات للنظر في جدواها تستفتي
أصحاب الخبرة والشأن وتفسح لهم المجال للإدلاء بآرائهم ، وتستغل لجان العمل
السياسي هذه المدلولات لتفرض وجهة نظرها الوحيدة والمنفعية عن طريق تزويد

الشهود والإدارة الحكومية ذات العلاقة بالاقتراح بالمعلومات ، وفي المقابل : فإن
اللجان تستخدم عملية تمويل الانتخابات لضمان وصول مؤيديها إلى الكونجرس أولاً
، ثم إلى اللجان المرتبطة بمصالحهم ثانياً ، وفي حالة الأصوليين فإن لجنة الشؤون
الخارجية هي الهدف الذي يسعون إلى الوصول إليه عن طريق مرشحيهم ، وبهذه
الطريقة تصبح لجان العمل السياسي تتحكم في المعلومات والشهود والمقررين ،
وينشأ عن ذلك ما يعرف في عالم السياسة الأمريكية بالمثلث الحديدي أو الحكومة
الفرعية ، من أجل ذلك : فإنه لا يستغرب أبداً الزيادة الهائلة في تبرعات اللجان
السياسية للمرشحين من 34 مليون دولار في سنة 1978م إلى 134 مليون دولار
في سنة 1985م [6] فإذا علمنا أن المحرك لغالبية اللجان السياسية هو العقيدة ، وأن
تبرعاتها المالية للمرشحين في ازدياد مضطرد : فإن أهدافها لا تحتاج إلى كثير بيان .

فمن ذلك : ما صرح به أحد الفقهاء السياسيين ! بأن الوقت قد حان ليأخذ
الإنجيليون المبادرة ويحددوا مسار الولايات المتحدة ، فإن لديهم الموارد المادية التي
يؤثّرون بها على البلاد ، فهذا هو العقد الأخير من هذا القرن ، وسيكون عقد أمريكا
كما قال الصوت المألوف بيلي جراهام [7] ، وقد حدد هذا المرشد الروحي هدفين
رئيسين يجب على الإنجيليين تحقيقهما : أولاً : وهو قصير المدى ، ويتعلق بتغيير
تفكير السياسيين عن طريق الإلمام والإمداد بالمعلومات لتثقيفهم ، أما الثاني : فهو
طويل المدى ، ويركز على التخلص من السياسيين أنفسهم بناءً على مواقفهم من
قضايانا المسجلة في أرشيف الكونجرس [8] .

ثم إن الأحداث التاريخية القريبة وبالذات احتلال فلسطين ثم القدس زادت من
قناعة الإنجيليين بالإرهاصات السابقة لظهور المسيح مرة أخرى [9] ، بالإضافة
إلى إشعال الحماس في قلوب الملايين من عامة النصارى بمختلف طوائفهم ولم

يطيقوا كتمان تلك العاطفة الجياشة تجاه موطن المسيح (عليه السلام) فأجبروا مجلس
الشيوخ في سنة 1990م على الاعتراف بالقدس الموحدة عاصمة أبدية لدولة
إسرائيل ، وما المزايدات الأخيرة في مؤتمر (إيباك) إلا دليل جديد يضاف إلى قائمة
طويلة من البراهين على نفوذ الإنجيليين واختراقهم للمؤسسات الوطنية !

ولم يقف الحماس الديني عند هذا ، بل تعداه إلى التصاريح الرسمية والعمل
المنظم لإرضاء شعب اليهود ؛ ففي سنة 1972م أعلن المؤتمر الأول للمعمدانيين
الجنوبيين (نخبة أمريكا الدينية والسياسية) أن اللاسامية معادية للنصرانية [10] ،
وبعد ذلك بعقد من الزمان وفي مدينة (استوكهولم) بالسويد : تبرأ الاتحاد العالمي
للوثريين من آراء مارتن لوثر التي أصدرها في آخر حياته بعد أن فشل في
تنصيرهم ، وقد تابعه في ذلك مؤتمر رؤساء الكنائس اللوثرية الأمريكية وأنكر
المجتمعون صلتهم بالملاحظات المتطرفة للوثر عن اليهود [11] ، وفي بداية عقد
التسعينات : أصدر المجلس القومي لكنائس المسيح في الولايات المتحدة بيانه حول
سياسة الشرق الأوسط ، مطالباً فيه جميع الدول العربية بالاعتراف بإسرائيل
وحدودها الآمنة والاتفاق على ضمانات دولية لحماية إسرائيل ، وعلى أن يحدد
مستقبل وضع مدينة القدس حسب التركيبة السكانية لا على اعتبار الأماكن
الدينية [12] ، وهذا التنازل الذي يقدمه النصارى عن كنائسهم العتيقة ومولد
المسيح يفسر لنا موقف أمريكا من سياسة الاستيطان التي تمارسها
إسرائيل والسرعة المذهلة في تغيير هوية السكان في المدينة المقدسة .

بعد كل هذه المقدمة الطويلة الضرورية في نظري عن أسباب ووسائل نشأة
المنظمات الأصولية وأهدافها ، أقدم فيما تبقى من هذا الجزء عرضاً لأهم وأخطر
تلك المنظمات وأثرها الفعال على قرارات الكونجرس والحكومة ، ويكفي أن يشهد
أحد هؤلاء القائمين على الأنشطة السياسية الأصولية على أهميتها وجدواها ، إذ

يقول روبرت دوجان : إنه بعد فشله في الانتخابات البرلمانية عُين مديراً لمكتب
رابطة الإنجيليين الوطنية للشؤون العامة ، وبعد فترة في عمله الجديد : أخبره اثنان
من أعضاء الكونجرس بأن تأثيره على الدولة بواسطة مكتبه أكبر من كونه عضواً
في المجلس نفسه ، وقد كان يظن دوجان أنهما يواسيانه بذلك إلا أنه أصبح
يشاركهما الرأي تماماً [13] .
لعل من أبرز الشخصيات التي تولت كبر الدعوة إلى دعم ومساندة إسرائيل
القس جيري فولويل زعيم الأغلبية الأخلاقية ورئيس جامعة الحرية التي يدرس بها
حوالي سبعة آلاف طالب اللاهوت من وجهة النظر اليهودية مكرساً بذلك عقيدة
المهاجرين الأوائل ومؤسسي الجمهورية ، كما يشرف على جماعة سياسية نشطة
تضم حوالي ستة ملايين عضو ، وله برنامج مشهور يذاع أسبوعيّاً من خلال
تسعمئة محطة إذاعية ومرئية ، بالإضافة إلى ذلك الانتشار الشعبي : فإن مجموعته
تصدر تقريراً شهريّاً باسمها يرسل إلى الرئيس وأعضاء الكونجرس وحكام الولايات
وكبار الصحفيين ووكالات الأنباء والمحطات ، ولقد ساهمت المنظمة في ترجيح كفة
مرشحين كُثُر ، من أشهرهم : السناتور الجمهوري جيسي هلمز (وهو متعصب حاقد
يشغل الآن منصب رئيس لجنة الشؤون الخارجية بمجلس الشيوخ) . ولقد بلغ مجمل
ما أنفقته المنظمة على الدعاية والانتخابات في حملة سنة 1984م مائة مليون دولار
متفوقة بذلك على المرشحين الرئاسيين مجتمعين ، ونظراً لما يتمتع به من نفوذ
وشهرة ؛ فقد استعان به رئيس وزراء إسرائيل الهالك بيجنلحشد الرأي العام لمصلحة
بلاده بعد ضربها المفاعل النووي العراقي . والذي حمل فولويل على كل هذا : هو
ما صرح به من أن مصلحة أمريكا تقتضي دعم إسرائيل لأنها تمثل رغبة الرب ! ،
وهذا يعني فتح المستودعات العسكرية الأمريكية وبنوك المعلومات والمال لها [14] .

ويعاصر فولويل قسيس آخر يصرح بالعداء للإسلام وأهله ألا وهو بات روبرتسون المرشح الرئاسي السابق ومدير شبكة الإعلام النصرانية الضخمة والجامعة التي تحمل الاسم نفسه ، ويصدر عنهما مجلات ونشرات دورية وبرامج إذاعية ومرئية تصل إلى الملايين [15]، ولشدة نفوذه وكذلك تحمس الساسة لأفكاره : كان يشترك في كل اجتماع يعقد في المكتب البيضاوي بخصوص الشرق الأوسط ، فيوجه عملية اتخاذ القرار بما يتناسب مع النبوءات التوراتية والإنجيلية [16] ، وهذا يفسر لنا سبب حثة المشاهدين على الكتابة للرئيس والنواب كي يشجعوا إسرائيل في غزوها لجنوب لبنان حسب ما تراه ضروريّاً ، وقد رافق نائبَ الرئيس ريجان في رحلته إلى السودان لإبرام صفقة ترحيل يهود الفلاشا [17] ، وقيل : إن الرئيس الأمريكي نفسه هو الذي طلب منه الانضمام إلى الوفد [18] ، ويبدو أن القس روبرتسون متفائل جدّاً بمستقبل دعوته وأنشطته حيث يقول في كتابه الأخير (الألفية الجديدة) بأن الصراع بين الإيمان والعلمانية في أمريكا سوف ينتهي في هذا العقد (أي الأخير من القرن العشرين) بالنصر للأول ، والسبب في هذا التفاؤل المفرط هو بالإضافة إلى إرهاصات عودة المسيح المذكورة آنفاً : وجود رجل في المكتب البيضاوي يعلن ولادته ثانية كنصراني مؤمن ، ومساهمة الإنجيليين في إيصال خليفته الذي يشاركهم اعتقادهم إلى المكتب ذاته [19] .

أما ثالث أهم المجموعات السياسية المؤثرة في العلاقات الخارجية : هي مؤسسة التراث التي أنشأت سنة 1973م للتأثير على الرأي العام والسماح للفكر اليميني بالانتشار والسيطرة على السياسة العامة للدولة ، وبفضل دعمها للمرشح الرئاسي سنة 1980م تمكن (36) من أعضائها من تبوّؤ مناصب قيادية في إدارة الرئيس ، واختير رئيسها ديفيد فويلنز ليرأس اللجنة الاستشارية لتقويم الدبلوماسية الأمريكية ، وتجاوز دعم المنظمة المحيط الأطلسي ليشمل إنجلترا ودول غرب

أوروبا ، والتعاون مع مئتي مؤسسة ومنظمة ومركز أبحاث ومؤسسات إعلامية
لتطوير برنامج عمل دولي لليمين تحت مسمى الاتحاد الديمقراطي العالمي الذي
يضم رؤساء أحزاب سياسية محافظة من ثلاثين دولة ، ولقد ردّت رئيسة وزراء
بريطانيا السابقة الجميل للمؤسسة لدعمها لها بأن عينت أحد أعضائها مستشاراً
سياسيّاً لحكومتها ، وهو الذي وضع البرنامج الانتخابي لحزب المحافظين في الوقت
الذي تزود المؤسسة جميع مساعدي أعضاء الكونجرس وحوالي أربعة آلاف صحفي
بملخص لجميع الدراسات الصادرة عنها [20] .
هذه النبذة الموجزة عن أهم المنظمات السياسية الأصولية وأنشطتها تجد لها
تصديقاً في الواقع الفردي ، إذ تشير الإحصاءات إلى أن حوالي 40% من
الأمريكيين يحضرون إلى الكنيسة أسبوعيّاً مقابل 14% و12% في كل من بريطانيا
وفرنسا ، وأن قرابة 70% يؤمنون بالرب واليوم الآخر والبعث [21] ، كذلك : فإن
المعاهد الكنسية قد زاد عدد طلابها من 18 ألف في سنة 1954م إلى حوالي
مليونين سنة 1980م ، وزاد عدد المحطات الإذاعية الدينية من 49 محطة
إلى 1400 محطة للفترة نفسها ، وقد بلغ الإنفاق الإعلاني للكنيسة 32
مليون دولار، بينما وصلتها تبرعات تجاوزت الستين مليار دولار لسنة
1982م [22] ، ولنا أن نتخيل ما وصلت إليه الكنيسة ومواردها
ومؤسساتها بعد عقد من الزمن ! كيف وقد اقترب القرن من نهايته
وحملت صناديق الاقتراع منذ الرئيس الهالك نيكسون رؤساء يعلنون
على الملأ ولادتهم الثانية بكل فخر رغم علمانية الدولة وانتفاء الصلة بين
الاثنين نظريّاً لأن الصوت الديني أصبح بازدياد صوتاً إنجيليّا
خالصاً [23] ، ولعل السبب الرئيس في فشل حملة المرشح الرئاسي
مايكل دوكاكس سنة 1988م هو غياب (كلمة الرب) من قاموسه
السياسي ظنّاً منه أنها لا تتصل بالانتخابات [24] .
بالرغم من كل تلك الجهود التي يبذلها الأصوليون النصارى ، إلا أننا نجد أن
قطاعاً كبيراً من اليهود غير راض عن سياستهم لدرجة أن أحد الحاخامات ألّف
رسالة ينذر فيها بخطر منظمة الأغلبية الأخلاقية [25] ، كما علق المدير السابق

للمؤتمر اليهودي الأمريكي على اقتراح رئيس الأغلبية في مجلس الشيوخ والمرشح
الرئاسي للحزب الجمهوري بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس بأن المجتمع اليهودي
يشعر بعدم ارتياح كبير إزاء الجمهوريين الذين يفعلون كل ما في وسعهم للتقرب
إلى الطوائف المحافظة والمتشددة [26] .
ومن ناحية أخرى : نجد أن بنجامين فرانكلين وهو أحد رؤساء ومؤسسي
الجمهورية الأمريكية يحذر قومه من اليهود قائلاً : إنهم في كل أرض حلّوا بها
أطاحوا بالمستوى الأخلاقي وأفسدوا التجارة ، من أجل ذلك يجب إبعادهم عن البلاد
وبنص الدستور وإلا سيلعنكم [أي : واضعو الدستور] أحفادُكم في قبوركم ، لأن
اليهود سيقضون على مؤسسات الدولة بالطرق الملتوية ويسيطرون على الحكومة
في النهاية ، وسوف يدمرون شعبنا ويغيرون شكل الحكم الذي فديناه بأرواحنا
وحرياتنا الفردية ، وإنه خلال مئة عام سيعمل أبناؤنا في الحقول لإطعام اليهود في
مكاتبهم وبيوتهم المالية وهم يفركون أيديهم مغتبطين [27] .
ثم إذا أضفنا إلى هذا العداء والنفرة بين اليهود والنصارى مواقف التلمود من
قدْح في نسب عيسى (عليه السلام) وتكذيب تعاليمه ونعتها بالهرطقة والوثنية ،
واتهام النصارى بالزنا والفواحش والجنس ، والنهي عن التعامل معهم أو إفادتهم ،
والحض على الاحتيال عليهم وقتلهم ، والسعي إلى تحطيم الدين ذاته .. يتضح من
كل ذلك العرض : أن الأصوليين النصارى في الوقت الذي يقومون فيه بدور
الحمير لليهود ، إلا أنهم يسعون لأهدافهم الخاصة بهم التي وضعها لهم القس المصلح
مارتن لوثر ، وهي بمثابة الأحلام التي يعيشون عليها ، فإنهم وإن كانوا يقدمون
خدمة مجانية لإسرائيل إلا أن المحرك الرئيس لهم هو عقيدة العودة الثانية للمسيح
(عليه السلام) ، وقد صرح كبار الساسة بذلك ، فلم يبق عليهم إلا تحقيق تلك النبوءة
على الخريطة السياسية للمنطقة .

(1) لي أوبرين : المنظمات اليهودية الأمريكية ونشاطاتها ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ص215.
(2) البعد الديني في السياسة الأمريكية ، ص10 .
(3) السابق ، ص53 .
(4) John Harrigan, Polities and Policy in States and Communities, 1998, p 110 .
(5) Roger Davidson and Walter Oleszek, Congress and Its Members, 1990, p 282 .
(6) The Interest Group Society, p 120 .
(7) Winning The New Civil War, p 181 .
(8) المرجع السابق ، ص88 .
(9) الصهيونية المسيحية ، ص72 .
(10) البعد الديني في السياسة الأمريكية ، ص53 .
(11) الصيهونية المسيحية ، ص30 .
(12) المنظمات اليهودية الأمريكية ، ص271 .
(13) Winning The New Civil War, p 27 .
(14) البعد الديني في السياسة الأمريكية ، ص100-112 بتصرف .
(15) البعد الديني ، ص112 .
(16) الصهيونية المسيحية ، ص146 .
(17) البعد الديني في السياسة الأمريكية ، ص115 .
(18) الصهيونية المسيحية ، ص146 .
(19) Pat Robertson, The New Millennium P 93 .
(20) Garry Wills, Under God, 1990, p 16 .
(21) البعد الديني في السياسة الأمريكية ، ص69-71 بتصرف .
(22) Under God, p 20 .
(23) المرجع السابق ، ص61 .
(24) البعد الديني في السياسة الأمريكية ، ص286 .
(25) جريدة الحياة ، 12/12/1415هـ .
(26) شيريب سيريدوفتيش : حكومة العالم الخفية ، مترجم ، ص29 .
(27) برانتس : فضح التلمود ، ترجمة زهدي الفاتح ، 1412هـ .

في دائرة الضوء

البث المباشر والهوية الثقافية
أدبيات القضية ومحاولات التفسير

بقلم : د .نبيل السمالوطي

واجه العالم تطوراً علميّاً هائلاً منذ سنة 1971م يتمثل في توظيف الأقمار الصناعية في خدمة الإرسال التلفزيوني المباشر [1] ، دون حاجة إلى محطات أرضية .

وأصبح الإرسال يصل إلى المنازل مباشرة دون إمكان تدخل الأجهزة الرقابية في الدول ، وأصبح هذا التطور يمثل إيجابيات وسلبيات تعاني منها الدول دون إمكان وقف البث أو السيطرة عليه ، وقد استخدمت هذه القنوات من جانب دول الغرب ، سواء من خلال قنواتها المباشرة ، أو من خلال إنتاجها الذي يمثل

حوالي 50% من الإنتاج الذي تبثه قنوات العالم الثالث في خدمة تسويق قيمهم وأساليب حياتهم وطرق التفكير والعلاقات السائدة في المجتمعات الغربية ، هذا إلي جانب تسويق منتجاتهم الاقتصادية [2] ، والسيطرة على عقول أبناء المجتمعات النامية ، وتحقيق ما يطلق عليه : الاختراق الإعلامي للدول ، الذي هو مدخل لكل الاختراقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. إلخ .

أدبيات القضية :

ويشير استعراض التراث أو أدبيات الاتصال إلى تعدد الآراء والمنظومات
والاستنتاجات والتحليلات ، ونستطيع إيجاز أهمها فيما يلي :

أولاً : يرتبط البث المباشر وتزايد القنوات الفضائية بالتقدم الضخم الذي تم
إنجازه في مجال تقنية الاتصالات الفضائية ، وبخاصة فيما يتصل بتنامي قوة
الأقمار الصناعية وصغر حجم الهوائيات ورخص ثمنها [3] .

ثانياً : يصعب جدّاً إن لم يكن مستحيلاً السيطرة على هذا البث من خلال
التشويش أو الإلغاء ، فضلاً عن تكاليف ذلك التي لا تستطيع الدول النامية تحملها .

ثالثاً : هناك من يرى أن الدول الغربية تحاول توظيف البث المباشر لتحقيق
الهيمنة الاتصالية Media Imperialism؟ وهي أحد أبعاد الهيمنة الثقافية التي
هي بدورها أحد مظاهر أو مداخل الهيمنة الشاملة على الدول النامية ، ويشار بشكل
خاص إلى الإنتاج الإعلامي الأمريكي بوصفه هو الإنتاج الأكثر انتشاراً على
مستوى العالم .

رابعاً : بذلت عدة محاولات خلال عقود الستينات والثمانينات لإيجاد حلول
جادة لمشكلات اختلال نظام الاتصال الدولي ، ومنها لجنة شون ماكبرايد [4] ، وقد
باءت هذه المحاولات بالفشل ، فبقي القوي قويّاً وازداد الضعيف ضعفاً .

خامساً : هناك مواثيق واتفاقيات ومبادئ دولية صادرة في إطار الأمم المتحدة
واليونسكو واتحادات الإذاعات الإقليمية تنظم استخدام الاتصالات الفضائية والتداول
الحر للأخبار والمعلومات والبرامج ، لها قوة ملزمة لجميع الدول ، وهي في بعض
جوانبها في غير صالح الدول النامية .

سادساً : ساهم موقع الدول العربية الجغرافي في استقبال المشاهدين العديد من
قنوات البث المباشر من آسيا وأوروبا وأمريكا والدول العربية الأخرى دون حاجة
إلى هوائيات إضافية .

سابعاً : يذهب بعض الباحثين إلى رفض التفسير التآمري للبث المباشر ،
ويقولون : إن البث نتيجة منطقية وطبيعية للتقدم العلمي والتقني ، ولابد من مواجهة
إشكالياته من خلال التخطيط العلمي [5] ، وتخيل التآمر على الإسلام والمسلمين
ليس في تطوير التقنيات ولكن في توظيف البرامج وما يتم بثه خلال القنوات .

ثامناً : ينظر بعض الدارسين إلى البث المباشر بشكل إيجابي على أنه يسهم
في إثراء المعرفة ونشر الثقافات ، وتعزيز التفاهم والتقارب والتفاعل بين الشعوب
والثقافات ، وتوسيع نطاق التعليم والوعي ، واحترام حقوق الإنسان في نشر
المعلومات والأخبار والحصول عليها [3]، في حين ينظر بعض الدارسين إلى هذا
البث على أنه هيمنة ثقافية وتسلط على عقول العالم الثالث [6]، أو على أنه إيدز
العصر [7] ، وأنه أخطر تحدي للأمة المسلمة لا يقتصر على الاختراق السياسي بل
يمتد إلى اختراق عقول الأمة [8] ، فالغرب يحاولون تفريغ شباب المسلمين من
إمكاناتهم وقدراتهم وطاقاتهم من خلال المخدرات والجنس ، وإهدار القيم والسلوكيات
من خلال البث المباشر ، وبعض الباحثين الغربيين (وبستر) يرى أن البث المباشر
يؤدي إلى إشكالية قيمية تتمثل في سيطرة الدول ذات الأنظمة الاتصالية القوية
والمتمرسة على الدول الجديدة الغضة [9] .

تاسعاً : يذهب بعض الباحثين إلى أن الخطورة والإسفاف تتمثل في بعض
القنوات التجارية التي تتجه للتركيز على العنف والإثارة الجنسية والإباحية ، مما
يتصادم مع ثقافة الإسلام وثقافة العديد من دول العالم [3].

عاشراً : إذا كانت غالبية الدارسين الموضوعيين يرفضون التفسير التآمري

للبث المباشر ، فإنهم يؤكدون توظيفه من قبل الدول غير الإسلامية وبخاصة الغربية
لهدم القيم الإسلامية لدى المشاهدين المسلمين ، وتشارك في هذا قوى صهيونية
ونصرانية واقتصادية .
حادي عشر : على الرغم من اتجاه دول أوروبا إلى التقارب السياسي
والاقتصادي والإعلامي .. إلا أن كل دولة تبذل جهوداً كبيرة للحفاظ على هويتها
الثقافية المتميزة ، وتحاول الوقوف في مواجهة الغزو الثقافي القادم مع البث المباشر
من دول أخرى في القارة نفسها أو من خارجها ، هذا ما فعلته اليابان حفاظاً على
ثقافتها وفكر وسلوكيات أبنائها [10] ، وهذا ما فعلته فرنسا وكندا اللتان ضاقتا
بالغزو الثقافي الأمريكي في وسائل الاتصال [11] ، وإذا كان ذلك التخوف وتلك
الإجراءات تتخذ من جانب دول ذات قوة اقتصادية وإعلامية ، فالحاجة أشد في دولنا
الإسلامية ، وبخاصة وأن التأثير في هذه الحالة الأخيرة أحادي الاتجاه في غيبة
التخطيط العلمي لتحديث الاتصالات الإسلامية .
ثاني عشر : تتمثل المشكلة في تعاظم تأثير التلفزيون في حياة البشر في كل
مكان ، لدرجة أطلق عليها بعض الدارسين مصطلح الإدمان التلفزيوني ، ويقاس هذا
الأثر بعدد ساعات المشاهدة اليومية بالنسبة للأطفال والشباب والنساء والرجال ..
إلخ ، ففي دراسة أجريت في الولايات المتحدة واليابان والنمسا وكندا : أكدت أن
الأطفال الذين تتراوح أعمارهم من 9-10 سنوات
، يشاهدون التلفزيون بمتوسط 3
ساعات يوميّاً [12] ، ويشاهد الأكبر سنّاً عدداً أكبر من الساعات اليومية ، وكما
يشير بعض الدارسين : يقضي الطفل أمام التلفزيون وقتاً يماثل أو يزيد عن الوقت
الذي يقضيه في الفصل الدراسي [15]، وكشفت دراسة ريبيل ومونتويا 1981
التي أجريت على الطلاب بين 12-16 سنة لمعرفة أثر التلفزيون عليهم مقارناً بأثر
المناهج الدراسية عن : أن هؤلاء الطلبة يقضون 6 . 3 ساعة يوميّاً في المتوسط

أمام التلفزيون غير ساعات البرامج التعليمية ، وأنهم يفضلون محتويات التلفزيون
التجاري على المناهج والبرامج التعليمية ، وأنهم يحسون بالملل أمام البرامج
التعليمية ، ولا يحدث ذلك بالنسبة للبرامج التجارية [16].

محاولات التفسير :

تعددت الآراء والرؤى حول قضية البث المباشر وانتشار البرامج والأفلام
والمسلسلات الغربية بشكل عام والأمريكية بشكل خاص داخل الدول النامية والدول
الإسلامية ، سواء من خلال القنوات الفضائية الأجنبية ، أو من خلال القنوات
الوطنية ، ولا يقتصر الأمر على انتشار هذه البرامج والمسلسلات والأفلام ، وإنما
هناك مصادر صناعة الأخبار وصياغة الأنباء وعرض المعلومات وصناعة
الإعلانات .. إلخ ، كل هذه المكونات الاتصالية المؤثرة في صياغة فكر الناس
وقيمهم وتفضيلاتهم وأحكامهم وطموحاتهم وسلوكياتهم ومواقفهم .. كل هذه المكونات
يتم صناعتها وصياغتها في بيوت الخبرة الغربية ومن خلال أحدث التقنيات العالمية
التي تمتلك ناصيتها دول الغرب بعامة ، والولايات المتحدة بشكل خاص [9].

وقد انصبت الآراء والنظريات والأفكار المطروحة حول تأثير هذه البرامج
الغربية واسعة الانتشار على الهوية الثقافية للدول المستقبلة لهذه البرامج ، وعلى
مستقبلها الاقتصادي والثقافي والسياسي ، وعلى نوعية الاتجاهات والقيم والسلوكيات
والأفكار التي يمكن أن يتبناها الأطفال والشباب في تلك الدول نتيجة لتعرضهم
ساعات طويلة يوميّاً لمشاهدة هذه المواد الاتصالية المصاغة في الغرب ، التي
تستهدف ليس فقط ترويج البضاعة والسلع الغربية ومنها السلع الثقافية بما فيها
البرامج والأفلام والمسلسلات والتقنية الاتصالية ، وإنما أيضاً تسويق القيم
والاتجاهات والسلوكيات والأخلاقيات الغربية ، خاصة الأمريكية . ولم يقتصر
الحوار والجدل والاهتمام بهذه القضايا التي تمس الهوية الاقتصادية والثقافية

والسياسية والفكرية والدينية والوطنية على مثقفي الدول النامية ومنها الدول الإسلامية والعربية ، وإنما دار هذا الحوار والاهتمام أيضاً بين مثقفي الدول الصناعية الكبرى سواء في الغرب مثل فرنسا وكندا أو خارج الغرب مثل اليابان [11].

وكما يشير وبستر فإن البرامج والمادة التلفزيونية تعكس بالضرورة قيم البلاد التي تنتجها ، وحتى عندما لا تكون لهذه البرامج سمات سياسية ، فإنها لا تخلو من قيم اقتصادية أو ثقافية أو دينية أو أخلاقية ، ولكل أمة هويتها الثقافية والقيمية ، وقد تتصادم هذه القيم المحملة في برامج الإعلام والاتصال الوافدة مع القيم والهوية الثقافية للدول المستوردة أو المستقبلة [9].

وقد طرح على ساحة أدبيات الاتصال العديد من التفسيرات والنظريات لتفسير ظاهرة سيطرة الغرب بشكل عام وأمريكا بشكل خاص على المادة التلفزيونية ، سواء في شكل أخبار أو معلومات أو إعلانات أو مسلسلات أو أفلام أو برامج متنوعة ..

- اتجاهان لتفسير الظاهرة :

الاتجاه الأول وهو :

الاتجاه الذي يركز على نظرية التبعية Dependency Theory

الاتجاه الثاني وهو :

الاتجاه الذي يركز على نظرية الانتشار Diffusion Theory

أ -الاتجاه الأول لتفسير الظاهرة :

والاتجاه الأول يعود إلى عدة رواد مثل فرانك [13]، ومن أنصاره المحدثين : ولرشتاين في دراسته عن (النسق العالمي الجديد) [14].

وتقوم نظرية التبعية بأشكالها المختلفة على تقسيم العالم إلى مراكز وأطراف ، فالقوى والدول الصناعية الكبرى هي المراكز ، تتخذ من الدول الفقيرة والنامية (الأطراف) ميداناً لزيادة ثرائها ، وهذا يعني استغلال المراكز للأطراف اقتصاديّاً وسياسيّاً واجتماعيّاً ، وتهيمن دول المركز على الأطراف لإلغاء هويتها ، ومن مظاهر هذه الهيمنة أو السيطرة : الهيمنة الاقتصادية والسياسية والاتصالية أو

الإعلامية ، وهنا تصبح الهيمنة الاتصالية أحد أشكال الهيمنة الشاملة ، وهي أخطر
هذه الأشكال لأنها تمهد السبيل لكل الأشكال الأخرى من الهيمنة ، ولأنها تستهدف
عقول الناس وقيمهم وشخصياتهم ، تماماً كما تستهدف ثرواتهم وسياساتهم .

فدول المركز تستهدف في نظر أصحاب نظرية التبعية إلغاء الهوية الثقافية
للدول الطرفية ، وتشكيل ثقافة عالمية متجانسة هي الثقافة الاستهلاكية التحررية ،
وتوظيف إمكانات الدول الطرفية في خدمة الرأسمالية العالمية ، وهذا يعني تحويل
هذه الدول إلى سوق يتم فيه تسويق :

1- المنتجات الثقافية الغربية (القيم والعادات ، والسلوكيات ، والتفضيلات ،
وأساليب الفهم والفكر ، والتحليل والتفسير ، ورؤية العالم) .

2- المنتجات الاقتصادية الغربية .

3- الانتماء الفكري للغرب بكل نظمه وأيديولوجياته ومبادئه .

وقد أفاض كل من فيجيس و شيلر و نورد نسترونج و فارس و أرجيومندو في
عرض هذا الاتجاه [15].

وهذا يعني أن الهيمنة الثقافية من خلال وسائل الاتصال تدعم حالة عدم
التوازن وعدم العدالة والانقسام الدولي الراهن إلى دول مركز مسيطرة ، ودول تابعة
خاضعة مستنزفة ومستغلة لصالح دول المركز .

والواقع أن السيطرة على المعلومات وعلى التكنولوجيا وعلى البرامج في
مجال الاتصالات ، تؤدي إلى تزايد القدرة على السيطرة على أذواق الناس وفكرهم
وسلوكهم الاستهلاكي ، والتكنولوجيا المتقدمة تعني مزيداً من القدرة على الوصول
بالرسائل إلى دول أكثر وجمهور أكبر ، وبشكل أكثر إغراءً وجاذبية ، وبالتالي :
تعني فتح أسواق أوسع أمام القيم وأمام السلع الغربية في آنٍ واحد ، وكل هذا يعني
مزيداً من السيطرة الاقتصادية والفكرية والثقافية [1]، فالغرب هو الذي يسيطر
على الأجهزة والمعدات المتصلة بالاتصالات ، وهو المسيطر على صناعة الرسائل

والمواد الاتصالية ، وهو الذي يسيطر على صناعة الأخبار وصياغة الأنباء
وتوظيف الأخبار بما يخدم أهدافهم ، فأهم وكالات الأنباء المسيطرة على توزيع
الأخبار على تلفزيونات وصحافة العالم هي الوكالات الغربية (الأسوشيتدبرس) ، و
(اليونيتيدبرس) ، و (رويتر) ، ووكالة الصحافة الفرنسية ، وكذلك وكالات الأنباء
التلفزيونية المصورة في أنحاء العالم المختلفة [1].

وأغلب الدول النامية لديها قناتان تلفزيونيتان ، تبث خلالهما ساعات إرسال
طويلة على مدى النهار والليل ، بينما لا تملك برامج ومواد وطنية تغطي أكثر من
عشر ساعات على الأكثر ، ولهذا تضطر للاعتماد على استيراد المواد الاتصالية
وغالبيتها من الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد وجد أن أكثر من نصف البرامج
المستوردة التي تبثها الدول الآسيوية هي برامج أمريكية ، و25% من البرامج
الإنجليزية ، وأغلب دول أمريكا اللاتينية تستورد 50% من البرامج التي تبثها ،
وتصل النسبة في بعض الدول أكثر من ذلك ، فهي في (أورجواي) 62% وفي
(جواتيمالا) 48% وأغلب هذه البرامج تستورد من الولايات المتحدة الأمريكية ،
ويقدر مجموع مبيعات المواد الاتصالية (برامج ومسلسلات وأفلام سينمائية) في
أمريكا سنة 1985 إلى ما يقرب من 290 مليون دولار[1].

كل هذا يشير إلى الهيمنة الثقافية والاتصالية ، وإلى تبعية دول العالم الثالث
أو النامي للدول الغربية ، خاصة الولايات المتحدة ، ومع تقدم تقنية القنوات
الفضائية : يكون العالم الثالث قد سلّم آخر ما لديه من أسلحة لمقاومة
الغزو الفكري ، وهو سلاح التحكم أو السيطرة النسبية أو الرقابة ، التي
ما يزال يستخدمها بقدرٍ ما
من الفاعلية إزاء المطبوعات وإزاء المادة التلفزيونية المستوردة [15].

كل هذا يثير قضية الهوية الدينية والثقافية والقيمية والوطنية ، كما يثير قضية
السلوك الاستهلاكي والتنمية الاقتصادية ، ويثير أيضاً قضية السيطرة السياسية

والتنشئة الاجتماعية والسياسية والدينية ، ويثير قضية اختراق العقل الوطني ، أو
تغريب عقول أبناء الدول النامية .. إلخ داخل الدول التي يطلق عليها الأطراف ،
الأمر الذي يتطلب حلولاً فعالة لمواجهة هذه الأزمة ، على أن تتسم هذه الحلول
بالحكمة والتخطيط والتعقل ، هذا عن الاتجاه الأول ، وهو اتجاه نظرية التبعية التي
تتحدث عن الهيمنة الثقافية ، التي يعرفها شيلر بأنها : جهود واعية ومنظمة تقوم بها
الاحتكارات الأمريكية في المجالين العسكري والاتصالي للحفاظ على تقدمها ،
وبالتالي : على نفوذها في المجالات المختلفة [15].

ويؤكد شيلر أن هذه الجهود تنبثق عن وزارة الدفاع الأمريكية التي تسهم في
وضع السياسة الأمريكية في مجال الاتصالات ، وهذا هو الشكل المباشر للجهود ،
كذلك تنبثق عن الشركات الأمريكية الخاصة (RCA-NBA) وهي من أكبر
الشركات المرتبطة بعقود مع الوزارة المذكورة [15]، وإذا كانت وسائل الاتصال
الأمريكية مرتبطة بالسياسات الاقتصادية والخارجية والدفاعية الأمريكية ، فإن هذا
يعني أنها أداة من أدوات الهيمنة السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية الأمريكية
على العالم من جهة ، وأداة من أدوات استمرار التخلف والتبعية الشاملة للدول
النامية استمراراً للمصالح الغربية والأمريكية من جهة أخرى [15].

ب - الاتجاه الثاني لتفسير الظاهرة :

وهو تفسير أنصار نظريات الانتشار والتحديث الثقافي [16]، ويرى أنصار
هذا الاتجاه وجوب عدم إطلاق أحكام فضفاضة مثل (الهيمنة الثقافية) أو (الاستعمار
الاتصالي) ، فهذه أحكام لا أساس لها من الصحة ، فانتشار وسائل الإعلام الغربي
والمواد الاتصالية الغربية داخل الدول النامية ، سواء من خلال محطات التلفزة
الوطنية أو الأقمار الصناعية : لا يشير إلى أي شكل من الهيمنة أو الاستعمار أو
السيطرة ، ولكنها عملية احتكاك ثقافي ضروري من أجل التنمية والانتقال من حالة

التخلف إلى حالة التنمية ، وهم يفسرون قضية انتشار الإنتاج الغربي في ضوء مفاهيم تجارية اقتصادية وهي رغبة الدول الغربية في تحقيق أرباح ، كما أنهم يفسرونها في ضوء حاجات الدول النامية إلى الأخذ بالنظم السائدة في الدول المتقدمة اقتصاديّاً للانتقال من مرحلة إلى مرحلة حتى تصل إلى المستوى نفسه للدول الغربية المتقدمة اقتصاديّاً ، وإلى جانب هذا : فإن أنصار نظرية الانتشار يميلون إلى تفسير انتشار المواد والإنتاج الاتصالي الغربي في ضوء طبيعة المنتجات الغربية (المعلومات ، الأخبار ، البرامج ، الأفلام ، الإعلانات ، المسلسلات ..) من حيث الجاذبية والتقنية العالية وانخفاض السعر .. إلخ [16].

ويؤكد أنصار نظرية الانتشار على خطأ إهمال أنصار نظرية التبعية للعوامل التي تؤثر في حركة انسياب المواد الاتصالية بين الدول المتقدمة والدول النامية ، كما أنهم يخطئون عندما يتجاهلون علاقة التأثير والتأثر المتبادلة في هذا المجال وذلك نتيجة لتركيزهم على آحادية اتجاه حركة المواد الاتصالية .

وهم يخطئون ثالثا عندما يتجاهلون الآثار الإيجابية للمواد الاتصالية الغربية داخل الدول النامية .

جوانب الاختلاف بين الاتجاهين :

ويمكن إبراز أهـم جوانب الاختلاف بين أنصار نظرية التبعية ، وأنصار نظرية الانتشار والتحديث في ظاهرة عدم التوازن في مجال الاتصال والإعلام والغزو الثقافي فيما يلي :

أولاً : منطلقات الدراسة : فأنصار الانتشار ينطلقون من عملية التنمية الوطنية لنظم الاتصال ، ومن الدور الذي تلعبه القيم والمعايير الاجتماعية في تنمية هذه النظم ، أما أنصار نظرية التبعية فينطلقون في تحليل ظاهرة الهيمنة الاتصالية من تحليل علاقات القوى الدولية وتصنيف الدول إلى تابعة أو هامشية ، ودول مركز .

ثانياً : النظر إلى حالة التبعية : أنصار نظرية الانتشار ينظرون إليها على

أنها حالة مؤقتة ، يمكن زوالها من خلال استيعاب التقنيات والعلوم الغربية
وتطويرها وتوظيفها في خدمة التنمية الوطنية الشاملة ، ومن خلال تنمية القدرة على
استنبات آليات وتقنيات وطنية ، أما أنصار نظرية التبعية فينظرون إلى الهيمنة
الاتصالية على أنها حالة دائمة ترتبط بسيادة الرأسمالية والنظم العالمية الحالية
(الليبرالية) .
ثالثاً : النظرة إلى الدور الذي يلعبه النظام الاتصالي : فأنصار نظرية التبعية
يرون أن هذا النظام يكرس قوة القوي ، وضعف الضعيف وإبقاء (عدم التوازن)
على ما هو عليه ، أما أنصار نظرية الانتشار فينظرون إلى النظم الاتصالية على
أنها وسائل تخدم عملية التنمية الوطنية وتنمي حوافز الإنجاز والإنتاج وتسهم في
التنمية البشرية بشكل عام ، فالتعرض للمواد الاتصالية التي أفرزتها الدول المتقدمة
صناعيّاً تستثير الدافعية للإنجاز عند أبناء الدول النامية ، وتزيد طموحاتهم ،
وتطلعهم على أنماط ثقافية جديدة ومعلومات جديدة تفيدهم في النمو .
رابعاً : يسعى أنصار نظرية الانتشار إلى الحفاظ على الوضع العالمي على ما
هو عليه ، مع إجراء بعض التعديلات الوظيفية أو غير الجوهرية عليه ، أما أنصار
نظرية التبعية فيذهبون إلى ضرورة تغيير النظام العالمي القائم على الرأسمالية
وانعدام التوازن والهيمنة الغربية الشاملة على مقدرات العالم ، وهذا يعني إحداث
تغييرات بنائية في النظم الداخلية والدولية على كل المستويات .
خامساً : يرى أنصار نظرية الانتشار أن التغيير يبدأ من الداخل وبجهود
وطنية ، وتتسع لتصبح جهوداً إقليمية ، وتركز هذه الجهود على التنمية وإزالة
الحاجة إلى دول الغرب ، وهم يرون أن مطالبة العالم الغربي بالتخلي عن مصالحه
وإلغاء النظم الرأسمالية ، مطلب مستحيل وغير قابل للتحقق ، وهذا ما توصلت إليه
لجنة ماكبرايد (رئيس اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال في العالم) [4].

هذه هي أهم التوجهات النظرية بشأن تفسير ظاهرة السيطرة أو الهيمنة
الثقافية والإعلامية .

تقويم الاتجاهين إسلاميّاً :

وعند محاولة تقويم هذين الاتجاهين فإن النظرة الإسلامية الموضوعية
والمتوازنة ترفض الأساس أو المنطلقات الراديكالية التي تقف وراء نظرية التبعية ،
كما ترفض المنطلقات الليبرالية والمصالح الغربية التي تقف وراء نظرية الانتشار
والتحديث الحضاري ، فهناك النموذج والمشروع الحضاري الإسلامي بمنطلقاته
وأسسه وثوابته المستمدة من المنهج الإلهي المبني على وحي السماء ، غير أن هذا
الرفض لا يعني الاتفاق مع هاتين النظريتين في بعض الأمور ، وفيما يلي بعض
الملحوظات العامة بصدد الظاهرة المدروسة :

أولاً : يكشف الواقع عن ظاهرة التسلط الثقافي الغربي على أجهزة التلفاز
الوطنية والقنوات الفضائية التابعة للدول النامية والمتقدمة صناعيّاً في الوقت نفسه .

ثانياً : أن هذه السيطرة أمر مهدد للهوية الثقافية للدول النامية ، ومن بينها
الدول الإسلامية والعربية .

ثالثاً : هناك العديد من المخاطر التي تهدد الدول المستقبلة للبرامج الغربية
للاتصالات ، منها مخاطر اقتصادية وسياسية ودينية وثقافية ، ومخاطر تتهدد برامج
التنمية داخلها ، ولعل أكبر هذه المخاطر هي المخاطر الدينية والثقافية والتربوية
لأنها تؤدي إلى محاولة تغريب العقل العربي وعقول الناس في الدول الإسلامية ،
الأمر الذي يفصلهم عن مصدر قوتهم وسموهم ورفعتهم وهو الإسلام وأسس
الشخصية الإسلامية .

رابعاً : توظف الدول الغربية المتقدمة صناعيّاً هذه البرامج بشكل مدروس
لضرب الفكر الإسلامي والشخصية الإسلامية ، حفاظاً على الاحتكارات والمصالح
الغربية .

خامساً : لا شك أن العوامل الداخلية التي تحدث عنها أنصار نظرية الانتشار

لها أهميتها الكبرى في تفسير هذه الظاهرة ، ولا شك أيضاً أن البث المباشر له
بعض إيجابياته المتصلة بالتفاهم بين الشعوب والاحتكاك الثقافي ونشر المعلومات
ونشر العلوم والتقنية .. لكن سلبيات هذه الظاهرة (سيطرة الغرب على الاتصالات)
تفوق بكثير هذه الإيجابيات ، ومن هنا يثار التساؤل حول مدى إمكان الإبقاء على
الإيجابيات والتخطيط لتجنب السلبيات الخطيرة التي تحدثها هذه الظاهرة ، أو بقول
آخر : ما الحل أو الحلول المدروسة المخططة التي يجب أن تتبناها الدول الإسلامية
والعربية للقضاء على سلبيات هذه الظاهرة ؟ هذا ما يحتاج لدراسات أخرى قادمة
إن شاء الله تعالى .

---

(1) كرم شلبي : البث المباشر بالأقمار الصناعية ، مجلة الدراسات الدبلوماسية العدد (5) ص135 ، 136 ، 137 .
(2) عبد القادر ياسين : أجهزة الإعلام والغزو الثقافي ، جريدة الرأي الأردنية العدد 6717 .
(3) تقرير وتوصيات ندوة الإعلام العربي والبث المباشر ، المجلة العربية للثقافة 1990م ، ص180 ، 182 .
(4) ماكبرايد وآخرون : أصوات متعددة وعالم واحد ، ص303 .
(5) زين العابدين الركابي : حديث منشور بمجلة (الحرس الوطني) ديسمبر 1991م .
(6) عواطف عبد الرحمن : قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث .
(7) مجدي الواعد : تحقيق عن إيدز العصر ، البث المباشر : مجلة (منار الإسلام) إبريل 1994م ، ص66 .
(8) عبد الصبور مرزوق : بحث حول التحديات الفكرية ، مجلة منار الإسلام ، إبريل 1990م ، ص6.
(9) وبستر : أضواء على عصر الأقمار الصناعية ، ترجمة فؤاد صندوق ، مجلة الإذاعات العربية ، العدد (5) ص39 ، 42 ، 49 .
(10) محمد عبده يماني : التلفزيون العالمي هل يؤدي إلى نمو الجريمة في العالم الإسلامي ، مجلة الأمن والحياة العدد (104) .
(11) عبد الرحمن عسيري : البث المباشر ، التحدي الجديد ، ص12 .
(12) شعبان أبو اليزيد شمسي : ضرورة الإعلام التربوي في ظل المتغيرات الاتصالية الحديثة ، ص47 ، 15 ، 16 .
(13) أندرجانز فرانك : تراكمية التبعية .
(14) والرشتاين : النسق العالمي الجديد .
(15) محمد نجيب الصرايرة : الهيمنة الاتصالية ص130- 135 .
(16) التنمية والتحديث الحضاري للكاتب .

حوار

مع فضيلة الشيخ محمد هاشم الهدية
حول شؤون الدعوة والدعاة

التحرير

الشيخ محمد هاشم الهدية (رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية في السودان)
علم من أعلام الدعوة المبرزين ، له سابقة خير وبركة ، أسهم مع إخوانه في أنصار
السنة إسهاماً فاعلاً في نشر العقيدة السلفية في السودان .
تجلس معه فتستأنس بحديثه وبهدوئه ورزانته ، له تجربة دعوية طويلة متعددة
المجالات . ويسر مجلة البيان أن تجري مع فضيلته هذا الحوار .
شاكرين له تجاوبه معنا ..

- البيان -

للدعوة السلفية في السودان عمر طويل مبارك (ولله الحمد) ، فما أبرز
المراحل التي مرت بها هذه الدعوة من وجهة نظركم ؟

* بدأت الدعوة بجهود فردية ، ثم جماعة صغيرة تركز على الحلقات العلمية ،
وتدعو للتوحيد ونبذ الشرك ، ولم يكن لها تنظيم محدد ولا رئيس ، ثم انتقلت إلى
جماعة منظمة لها رئيس وتنظيم ، لكن كان عملها مقتصراً على العاصمة ، وكانت
هناك مجموعات أخرى داخل السودان على منهج الدعوة نفسه ، ثم انصهرت هذه
المجموعات كلها على مستوى السودان تحت مظلة جماعة أنصار السنة المحمدية ،
وأصبح لها تنظيم ورئيس ومركز عام يشرف على إدارة الدعوة ، ثم تلتها مراحل
أخرى أبرزها دخول الجماعة في العمل العام ؛ كالدعوة إلى تطبيق الدستور
الإسلامي ، وتلا ذلك : دخول الجماعة المؤسسات التعليمية والجامعات والدعوة من
خلال المؤسسات الإعلامية المختلفة كالإذاعة والتلفاز وغيرهما ، وأخيراً : تولي
ولايات عامة في الدولة بهدف تمكين الدين وإصلاح حال البلاد والعباد ، وباختصار
بحمد الله بعد أن كانت الدعوة ضعيفة ومحاربة أصبحت اليوم رائدة وملء السمع
والبصر .

يعد السودان أحد معاقل الحركات الصوفية بطرقها المختلفة ، فهل واجهت
الدعوة السلفية عقبات من شيوخ هذه الطرق وعامتهم ؟ وكيف تعاملكم معهم ؟

* نعم واجهت الدعوة عقبات متعددة وبعضها أكبر من بعض ، مثل : السب ،

والشتم ، والتكفير ، والضرب ، وقد بلغ هذا العداء أشده حينما كان للصوفية نفوذ
واسع في بعض الحكومات السابقة ، حيث استغلوا هذا النفوذ في : سجن مشايخ
الدعوة ، وهدم بعض مساجدها ، والتضييق عليها حتى لا يتمكن دعاتها من نشر
الدعوة في الأماكن العامة ومجامع الناس ، ولكن بتوفيق من الله وفضله أمكن دفع
كل ذلك بشيء من الصبر والعفو والصفح ، قال (تعالى) : ﴿ خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ
وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : 199] ، وهذا الابتلاء هو سنة الله (تعالى)
مع الرسل والدعاة ، كما حدث لشيخ الإسلام ابن تيمية حين وشى به أهل البدع لدى
ولاة الأمر ، وسجن وعذب ومات بالسجن ، ولكن دعوته ملأت الآفاق وانتشرت ،
وعلا صوتها .
انتشرت الدعوة الإسلامية في مختلف المجالات والآفاق ، وأصبحت حدثاً
بارزاً من الأحداث العالمية المعاصرة ، فأين يضع فضيلتكم الدعوة السلفية داخل
الصحوة ؟ ، وما تقويمكم لمسارها ؟
* الدعوة السلفية هي رائدة الصحوة الإسلامية ؛ لكونها تبرز الإسلام بمنهجه
الصحيح المتكامل الذي كان عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه ، فقد
قامت بفضل الله (تعالى) ببيان التوحيد واعتقاد السلف الصالح ، وتنقية العبادة مما
علق بها من البدع ، وتزكية النفوس ، وإيضاح الطريقة المثلى لتمكين الدين في
الأرض ، قال (تعالى) : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي
وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : 108] .
بعد تصحيح العقيدة ، ما أولويات العمل الدعوي في واقعنا الحاضر من وجهة
نظركم ؟ .
* أولويات الدعوة وضحها النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث معاذ بن
جبل (رضي الله عنه) حين بعثه إلى اليمن ، بأن يدعوهم إلى العقيدة الصحيحة ثم
إقامة شعائر وشرائع الإسلام ، والاعتناء بأمر العقيدة يكون مستمرّاً في كل مراحل

الدعوة ، كما ثبت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- في آخر حياته كان يحذر من
اتخاذ القبور مساجد حسماً لمادة الشرك ، قال (تعالى) : قُلْ إنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي
وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ [الأنعام : 162] والعمل على إيجاد الفرد المسلم
والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم ، ثم مراقبة هذا المجتمع ؛ حتى لا ينحرف عن
العقيدة السليمة ، ونشر الوعي الإسلامي الذي يعصم المجتمع من الانحراف بعون
الله .

الاختلاف والتنابذ من الأمراض المنتشرة بين صفوف بعض الدعاة ، ويكون
أحياناً بسبب ، وأحياناً أخرى بدون سبب ، فما أبرز الأسباب ؟ وكيف ترون
علاجها ؟

* بيّن شيخ الإسلام (رحمة الله عليه) في تفسير قوله (تعالى) : وَحَمَلَهَا
الإنسَانُ إنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً [الأحزاب : 72] أن سبب الاختلاف والتفرق هو
الظلم واتباع الهوى والجهل ، وأعتقد أن أعظم أسباب ذلك الخلاف : الجهل بفقه
الخلاف وفقه الدعوة ، وعدم مراعاة أحوال المدعويين ، وكذلك : حب الذات ،
والأنانية ، والغرور ، وعدم الشورى والتطاوع ، والإصغاء للشائعات ولمروجي
الفتن بدون تثبت وتروّ .

وعلاج ذلك : بإخلاص العمل لله ، وتعلم وتعليم الفقه في الدين وحكم الإسلام
في المسائل الخلافية ، كل ذلك مع الصبر والعفو والرفق ؛ قال (تعالى) : ادْعُ إلَى
سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ [النحل : 125] .

العلم الشرعي ركيزة رئيسة من ركائز الدعوة ، فهل ترون أن الصحوة
الإسلامية المعاصرة أخذت منه بنصيب جيد ؟ وما الوسائل المناسبة فيما ترون
لتنمية القدرات العلمية لدى أبناء الصحوة ودعاتها ؟ .

* لا شك أن العلم الشرعي أساس في استقامة الأعمال الدنيوية والأخروية ،
ولا يستفيد من هذا العلم إلا من فَقِهَ وعمل وفق هذا الفقه وهو حقيقة العلم وكيف

يطبق في المجتمع ، فإن كثيراً من حملة هذا العلم لا يكادون يهتدون إلى معرفة
كيفية تطبيقه في واقع المجتمع الذي يعيشون فيه ، فإن سلف الأمة فقهوا وطبقوا
وعمروا الأرض ، وتركوا لنا تراثاً علميّاً ممتازاً أهمه وأعظمه : الموازنات
الشرعية ، فقد بسّطها شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم تبسيطاً جعلها سهلة
التناول ، ثم التدرج في معالجة المشكلات التي تتجدد من جيل إلى جيل .

تواجه الأمة الإسلامية هجمة شرسة متعددة المشارب من الاتجاهات العلمانية
المختلفة ، فما هو دور العلماء والدعاة والحركات الإسلامية إزاء ذلك ؟ وكيف
تواجه هذه الهجمة ؟

* العلمانية نشأت أساساً في أوروبا منذ عهد طغيان الكنيسة وفكرها المنحرف
وعقائدها الخرافية ، وتبرماً من هذا نشأت العلمانية ، وهي فصل الدين عن الحياة ،
أي : عدم التحاكم إليه في أي شأن من شؤون الحياة ، ثم انتشرت إلى بقية أنحاء
العالم ، ولا يوجد ما يبرر وجود العلمانية في عالمنا الإسلامي ، إذ إن الإسلام منهج
متكامل للحياة ، ولا يوجد نقص في أي جانب من جوانبه يحتاج منا لتعديل أو
إضافة ، إذ هو منهج الله وحكمه ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾
[المائدة : 50] ، ودور العلماء والدعاة هو تعليم الناس العقيدة الصحيحة
التي تكون صماماً لمنع انتشار الأفكار الضالة ، وتعليمهم الدين القيم
وتنقيته مما علق به من شوائب وخرافات ، مع بيان مثالب العلمانية
ومنافاتها للدين ، أما الدعوات الإسلامية المنظمة فيرجى منها إضافة
لما سبق إقامة المجتمعات المسلمة المثالية ، حتى تكون واقعاً علميّاً
يحتذى به ، ومنهجية كل ذلك بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة
والقدوة الطيبة ، وإقامة المجتمع الإسلامي الذي يفهم واقعه ويتعامل معه
تعاملاً شرعيّاً ، مع تعلم العلوم الدنيوية حتى تقوى الأمة الإسلامية بنفسها
وتستغني عن دنيا غيرها من الأمم فضلاً عن دينها ، ومن باب إعداد القوة .

يعد السودان البوابة العربية للوصول إلى القارة الإفريقية ، فكيف تقومون
النشاط الدعوى بعامة والسلفي بخاصة في هذه القارة ؟

* صحيح ، السودان هو البوابة العربية للوصول إلى عمق القارة الإفريقية ،

والسلفية دخلت السودان عن طريق شيخ إفريقي قدم من موريتانيا سنة 1917م ،
وقد قمنا بحمد الله بالمساهمة في إنشاء المركز الإسلامي الإفريقي في الخرطوم ،
وسافرنا لشرق إفريقيا وأحضرنا الطلاب ، وقد ساهمت مدارس ومعاهد الجماعة في
شرق السودان في تعليم إخواننا الإرتريين العقيدة الصحيحة ، ولنا الآن معهد
متخصص في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها ، طلابه من مختلف الدول
الإفريقية ، ولنا مبعوثون يساهمون في نشر الإسلام وتعليم العقيدة الصحيحة ضمن
جهود الجمعيات الخيرية ، وتقويمنا هو : أن هذا النشاط الناشيء ما يزال في طور
البداية إذا قورن بعمل الجمعيات التنصيرية والرافضة والبهائية ، مما يتطلب تضافر
جهود جمعيات الدعوة والتنسيق بينها للحفاظ على وحدة المسلمين ولمزاحمة
الجمعيات التنصيرية وغيرها ، وتقليل شرها .

الأصولية ، التطرف ، الإرهاب ، مصطلحات إعلامية كثر تداولها وانتشارها
في الآونة الأخيرة عند الحديث عن الصحوة ، فما هو تقويمكم لهذه المظاهر ؟
وكيف ترون التعامل مع وسائل الإعلام العالمية ؟ .

* هذه المصطلحات روجها أعداء الإسلام لتشويه صورة الإسلام لدى الناس
وصدهم عنه ، خاصة وأن الإسلام أصبح يهدد كيان أعدائه ، وللأسف فإن بعض
من ينتسبون إلى الإسلام صاروا أبواقاً تردد هذه المصطلحات الجائرة ، محاولين
صد الشباب عن الإسلام وإيقاف عودة وانتشار الإسلام من جديد ، وساهم في هذا
أيضاً بعض شباب الصحوة الذين لم يستطيعوا الصبر على الأذى والتعامل معه
بضوابط الشرع ، حيث قاموا ببعض الأعمال لتغيير أوضاعهم بالعنف ، وحُسب كل
ذلك مع الأسف على الإسلام .

والواجب على علماء الإسلام والدول الإسلامية مقاومة هذه الهجمة الإعلامية
العالمية بالوقوف ضدها ومقاطعة وسائل الإعلام التي تبث هذه الحملات وإيجاد

إعلام إسلامي مضاد للإعلام المُعادي وموجه للصحوة الإسلامية وشبابها بالمنهج
الإسلامي السليم .
العجز والفتور من الأمراض المنتشرة مما قد يوجد بين خاصة الدعاة فضلاً
عن عامتهم ، فما أسبابه الرئيسة ؟ وكيف ترون علاجها ؟
* من أسباب ذلك الفتور : اليأس من استجابة الناس ، وهو شعور خاطئ ؛ إذ
نحن مأمورون بالتبليغ وبالإخلاص وبذل الوسع والتزام الصراط المستقيم ، والنتائج
بيد الله إنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ [القصص : 56] .
ومن الأسباب أيضاً : تقصير الداعية في بعض الأمور أو وقوعه في بعض
المحظورات ؛ فيرى أنه غير أهل للدعوة ، أو أنه منافق بذلك ، وهذا من تلبيس
إبليس ، ومن الأسباب : الابتعاد عن مخالطة الصالحين وأهل الخير ، وإهمال
الأمور التي تزيد الإيمان ، والعلاج : هو تدبر القرآن ومطالعة سير الأنبياء والرسل
وسيرة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وصحابته في ذلك ، مع الإكثار من فعل
الطاعات .
مشكلة جنوب السودان من المشكلات القديمة التي تزامن ظهورها منذ البداية
الأولى لاستقلال السودان ، فما هي في نظركم أسباب هذه المشكلة ؟ وهل أحسنت
الحكومات السودانية المتوالية في علاجها ؟
* هذه المشكلة أوجدها المحتل البريطاني بنظام المناطق المقفولة الذي عمل
بموجبه على عزل الجنوب عن الشمال لإقامة دولة نصرانية هناك ، وذلك لزعزعة
استقرار السودان ، وعملوا على منع التداخل بين الجنوب والشمال ، مع تشويه
صورة الإسلام والمسلمين والعرب لدى أبناء الجنوب ، وعملوا على بث النصرانية
وإقامة الكنائس والمدارس العلمانية ، مع منع نشر اللغة العربية والدين الإسلامي
وإقامة المساجد ، وكان للتصرفات الخاطئة من بعض تجار الشمال دور في ذلك ؛ إذ
استغل المحتل البريطاني تلك التصرفات لإظهار العرب في صورة المستعبد

والمستغل لشعب الجنوب ، ولم تحسن الحكومات السابقة حل المشكلة ؛ حيث
حُصرت الحلول في الحسم العسكري والحلول السياسية ، والعلاج هو : كسر
الحاجز وفك العزلة الاجتماعية وإقامة المساجد والمؤسسات الإسلامية وتعليم اللغة
العربية ؛ حتى يتمكن المواطن الجنوبي من معرفة الإسلام الصحيح ، ولنا تجربة
عملية في ذلك تمثلت في بناء مركز إسلامي في الجنوب ، ساهم في إدخال الكثير
من أبناء الجنوب في دين الله ، والحمد لله .

والله نسأل أن يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه ، وأن يرد كيد الكائدين إلى
نحورهم ، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى
آله وصحبه وسلم .

منتدى القراء

استراحة مجاهد

بقلم :سالم فرج سعد

أرأيت إلى رجلٍ يستجمع قواه ليطفئ نور الشمس ؟
أو يجمع حفنة تراب ليدفن ماء البحر ؟ !
كذلك هو حال أعداء هذا الدين : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ [الصف : 8] .
إنهم وإن كبتوا وكمموا الأفواه ، وأسروا الأقلام ، فكل ذلك يستثمر لصالح الدعوة ، وهي فرصة الدعاة لحشد الطاقات ، واستعلاء الهمم ، وإخراج المواهب ، ومواصلة المسير في تؤدة وتأن ، واستمرار العمل بجد واتزان ..
فهم في استراحة ، لكنها استراحة مجاهد الذي نومه ونبهه أجرٌ كله ..
لله درّ مجاهدٍ لا يفترْ
يحيي الليالي في الجهاد ويسهرْ
وأعداؤنا هم هم في كل مكان وزمان .. مهما تغيرت أساليبهم ، وتنوعت أشكالهم ..
فلا تخدعنا استعطافات الدهاة ، ولا ترجفنا أقاويل المبطلين ، آخذين من قوله (تعالى) لنبيه لوط (عليه السلام) : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ [الحجر : 65] ، شعاراً نهتدي به ، ونبراساً نستنير بنوره ، إذا تعالت أصوات المرجفين ، وصيحات المخذّلين ..
سيلاحِقون ويطارِدون .. لكن إلى متى ؟ فإن لكل ظالم نهاية .
فهذه طاقاتهم قد استفرغت ، وجهودهم قد نفدت ، وأساليبهم قد عُرفت ، فهم في الحقيقة يجازفون بحياتهم وأفكارهم وحتى مناصبهم .
فمهما عربدوا وأزبدوا ، وحاربوا وطردوا ، واضطهدوا ، فإن :
(الدعوة لن تموت ..
والشهداء خالدون ..
والتاريخ لا يرحم ..)
وأحداث الأمم وعظت ، وتجارب العاملين للخير نبهت وأيقظت ، فلا ندري متى يكون الاتعاظ ؟ ولا متى نصحو من نومنا العميق ؟

وكما قال بعض الحكماء :
(كفى بالتجارب تأديباً ..
وبتقلب الأيام عظة) .

الورقة الأخيرة

هيئة التناقض ! !

د . محمد بن ظافر الشهري

هناك من يقف مشدوهاً أمام ممارسات الأمم المتحدة التي تبدو متناقضة لأول
وهلة ، فهي تارة تضرب على يد المجرمين بيد من حديد ، وقد تعمد في سبيل هذا
الهدف النبيل إلى حصار الشعوب المغلوبة على أمرها ، وذلك لأمور ، منها : أن
موت بعض الشعوب رحمة ، وأن النظام المجرم سيسقط لا محالة إذا مات الشعب
عن بكرة أبيه ، وقبل هذا وذاك : يعد هذا العمل الإنساني مبرراً بقاعدة الشر يعم
والخير يخص .. !

وتارة أخرى تبدو الأمم المتحدة مطية للمجرمين وسوطاً في أيديهم ، فهؤلاء
الصرب يأسرون جنود بطرس ، و يسرقون منهم المدفعية والمدرعات ! ! ،
ويقتحمون سراييفو في زي الجنود الفرنسيين المسروق بالطبع ! ! ، و ينهبون
قوافل الإغاثة التي كانت الأمم المتحدة تنوي إيصالها إلى المسلمين .. إلى غير ذلك
من الأعمال التي وصفها المسؤولون في الأمم المتحدة بأنها استفزازية .. وقد تحلت
الأمم المتحدة حيال ذلك كله بضبط نفس لم يعهد له مثيل إلا في مواقفها المشرفة في
فلسطين والشيشان وطاجكستان وكشمير والفلبين و ..

إن ما يوهم التناقض في مواقف الأمم المتحدة هو الذي حدا بكثير من البسطاء
إلى اتهام هذه الهيئة بأنها غير ذات مبدأ .. وقد يشط بعضهم فيستشهد بما قيل
للحجاج بن يوسف حين فر من وجه غزالة الخارجية :

أسد علي وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى أم كان قلبك في جناحي طائر ؟!

والحق الذي لا ريب : فيه أن هذه الهيئة ذات مبدأ ثابت منذ تأسيسها ، وما
هذه المفارقات في المواقف من جرأة الأسد وقوته إلى جبن الأرنب وضعفه إلا دلائل
على اطراد منهجها ورسوخه .

وإذ كان الدور الذي تمثله الأمم المتحدة على مسرح البوسنة قد وصل إلى حد

الابتذال والإسفاف ، فذلك لأنها عرفت حال النظارة وأمنت من قدرتهم على النقد .
ويبدو أن النظارة لن يغيروا ما بأنفسهم قريباً .. ولكن الآمال تتزايد في أن تهتز
خشبة المسرح ذاتها لتجهض هذه المسرحية المسخ .. نسأل الله أن يحقق عاجلاً هذه
الآمال .. إنه سميع مجيب ..

تمت بعون الله